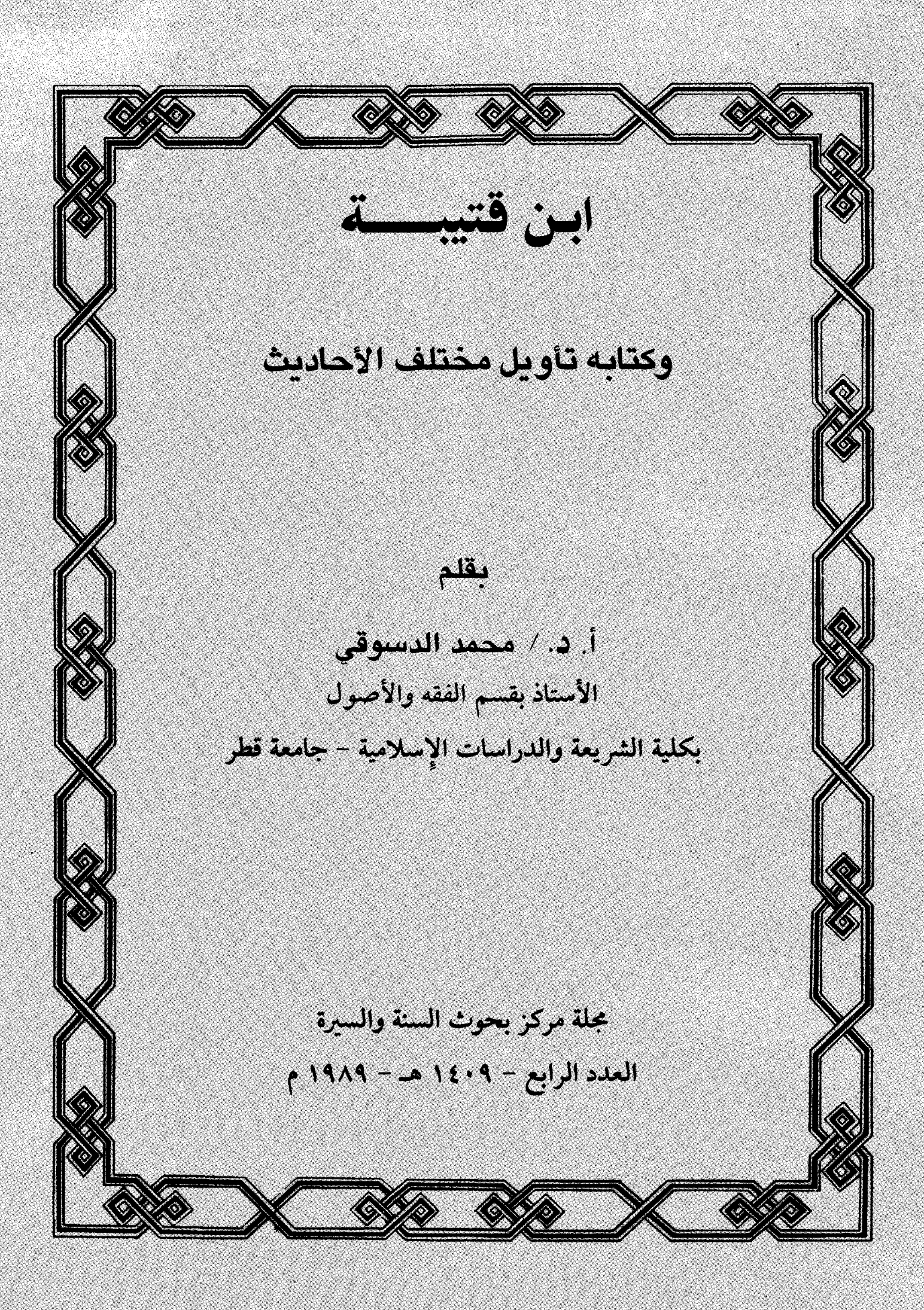


ابـن قتيبـــة

وكتابه تأويل مختلف الأحاديث

بقلم

أ. د. / محمد الدسوقي
الأستاذ بقسم الفقه والأصول
بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة قطر

مجلة مركز بحوث السنة والسيرة
العدد الرابع - ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

ابن قتيبة
وكتابه تأويل مختلف الأحاديث

بقلم

أ . د. محمد الدسوقي

مما لا مراء فيه أن من أهم سمات الحياة العلمية في تاريخ علماء الاسلام محاولة تتبع كل ما يخص أي علم بالدراسة الفاحصة والبحث الذي يستقرىء الكليات والجزئيات ، ويتجلى هذا أكثر في العلوم التي تتناول قضايا الدين تناولا مباشرا ، كالتفسير والحديث والفقه والتوحيد ، فقد درسها العلماء دراسة مستوعبة لكل جوانبها ، ففي التفسير مثلا درس النص القرآني من حيث إعجازه ولغته وبلاغته وأحكامه وآدابه ، والمفسرون وطبقاتهم ومناهجهم ، كذلك درس الحديث النبوي دراسة لم تغفل جانباً من جوانب الإسناد والمتن على نحو منهجي لم يعهد في دراسة نص تاريخي من قبل .

ويعد علم مختلف الحديث من علومه التي لا غنى لجميع العلماء من الوقوف عليه كما ذهب الإمام النووي[1] ، لأنه يبحث عن الأحاديث التي ظاهرها التعارض من حيث إمكان الجمع بينها إما بتقييد مطلقها ، أو بتخصيص عامها ، أو حملها على تعدد الحادثة ، أو غير ذلك[2] .

ولعل السبب الذي كان من وراء نشأة هذا العلم يرجع إلى حرص بعض العلماء على نفي الإحالات عن الآثار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسانيد المقبولة التي نقلها ذوو التثبت فيها والأمانة عليها ، وحسن الأداء لها[3] كما يرجع أيضاً إلى الرد على هؤلاء الذين سعوا للتشكيك في صحة السنة النبوية

---

(١) انظر تدريب الراوي جـ٢ ص٩٦ تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف .

(٢) انظر علم الحديث للدكتور صبحي الصالح ص ١١١ ط١١ دار العلم للملايين – بيروت .

(٣) انظر مشكل الآثار للإمام أبي جعفر الطحاوي المجلد الأول ص٣ ط حيدر أباد الهند .

بزعمهم أنها تجمع بين المتناقضات ، واتهامهم المحدثين باضطراب النقل ، وتعطيل العقل .

وكان الإمام ابن قتيبة من أوائل من كتبوا في هذا الموضوع كتابة علمية رصينة رد فيها ردا منطقيا على الذين اتهموا علماء الحديث برواية المتناقض ، واتخذوا من هذا ذريعة لرفض السنة ، والتشنيع على المحدثين ، وذمهم وامتهان أقوالهم وآرائهم ، وذلك في كتابه «تأويل مختلف الحديث» .

ويجدر قبل الكلام في هذا الكتاب ومنهجه وما اشتمل عليه من الآثار ، والعلاقة بينه وبين ما كتب حول هذا الموضوع ، وقيمته العلمية الإشارة إلى عصر ابن قتيبة من الناحية الفكرية ، ثم الترجمة الموجزة لهذا الإمام ، والتعريف العام بما خلفه من مؤلفات .

العصر :

كان العصر الذي عاش فيه ابن قتيبة عصر النهضة الفكرية والعلمية في العالم الإسلامي ، وكانت هذه النهضة الأساس الراسخ للثقافة الإسلامية في عصورها المختلفة ، فقد وضعت أسس كل العلوم تقريبا في ذلك العصر[٤] ، وقل أن نرى علما إسلامياً نشأ بعده ولم يكن قد وضع فيه ، وقد بدأ في أوائل القرن الثاني وامتد إلى منتصف القرن الرابع تقريباً . .

وأدت إلى نهضة الحياة العلمية في هذا العصر عوامل مختلفة ، بعضها يرجع إلى عامل الزمن[٥] واطراده ، واستبحار العمران والأخذ بأسباب الحضارة أكثر مما كان قبل ذلك ، ويرجع بعضها الآخر إلى أثر الثقافات الأجنبية في الفكر الإسلامي . .

ويتضح عامل الزمن في اختلاط الأجناس التي دخلت في الإسلام وتفاعلها ، وظهور جيل من الموالي يجيد العربية كأهلها ، ويجمع إلى هذا ثقافته

---

(٤) انظر ضحى الإسلام الدكتور أحمد أمين جـ٢ ص١٣ ط٤ القاهرة .

(٥) انظر أبو حنيفة للدكتور محمد يوسف موسى ص١١ ط معهد الدراسات العربية - القاهرة .

بلغة آبائه ، وهؤلاء كان لهم تأثيرهم في تطوير الحياة الفكرية ؛ لأنهم كتبوا بالعربية عن تراثهم ، وأنشأوا بهذه اللغة ما كان يكتبه آبائهم بلغاتهم ، فكان هذا لقاحا عقليا جديدا أكسب الحياة الفكرية خصوبة وعمقا ، وزاد من الأثر العلمي لهذا الجيل من الموالي الإحساس بالضعف أمام العرب الفاتحين ، فجد في طلب العلم وأكب عليه في حرص بالغ ، ونهم شديد ، حتى صار أكثر حملة العلم في الإسلام من الموالي[٦] .

ويتصل بعامل الزمن أن الأمة الإسلامية كانت قد مرت بطور المسائل الجزئية المبعثرة ، فكان لزاما أن يسلمها ذلك إلى طور آخر ، طور التنظيم وتدوين العلوم وتمييزها ، ومن ثم كان من أهم قسمات عصر النهضة أنه عصر التأليف والتدوين واستقلال العلوم . ولما كان العلم يكثر حيث يكثر العمران ، ويزدهر في كنف الثراء والحضارة[٧] ؛ لأن من شأن هذا أن يتيح للناس حياة أكثر استقراراً ودعة ، ويوفر لهم من الزمن ما ينفقونه في الاقبال على العلوم وتدوينها والكتابة فيها – لما كان الأمر كذلك فإن العمران في هذا العصر قد استبحر ، والحضارة الإسلامية بما تحمل من بعض آثار الحضارات القديمة قد تطورت وازدهرت ، وكان المجتمع ينعم بالرخاء الاقتصادي بوجه عام ، ولهذا كان العصر ملائما كل الملاءمة للحياة العلمية المثمرة .

وأما ترجمة الثقافات الأجنبية فقد ساعدت بلا جدال في ازدهار الحياة الفكرية في عصر النهضة ، فالمحاولات التي بذلت للاتصال بهذه الثقافات في القرن الأول كانت محدودة ، ولم يكن لها تأثير فكري ذوبال ، ولكن الاتصال بها في هذا العصر كان على نطاق واسع ، فقد اعتنى بالترجمة الخلفاء وبعض رجالات الدولة على تفاوت بينهم في هذا ، ومما يذكر أن هارون الرشيد (ت : ١٩٣هـ) أنشأ دار الحكمة ، وجلب إليها الكتب الأجنبية من بلاد الروم وغيرها ، ووظف طائفة من المترجمين فيها ؛ ليتوفروا على الترجمة والنظر فيما ترجم

(٦) انظر مقدمة ابن خلدون ص٦٢٢ ط التقدم القاهرة .

(٧) المرجع السابق ص٤٤٠ .

قبـل عصره ؛ ليكـون أكثر دقة واتقاناً ، وهذا الاتصال العلمي توج في عصر الخليفة المأمون : (ت:٢١٨هـ) بما بذل من نشاط جم في مجال الترجمة ، حتى عد عصره العصر الذهبي للترجمة في تاريخ الحياة الفكرية الإسلامية كلها فيما عدا العصر الحديث .

لقد كان لهذا الاتصال بثقافات البلاد المفتوحة وغيرها أثره الملموس في نهضة الحياة الفكرية في المجتمع الإسلامي ، لقد اتسعت آفاق العلماء ، وقويت ملكة النقد[٨] والدراسة عندهم ، وأصبح للمنهج العقلي السيادة وبخاصة في العراق الذي كان أكثر البلاد تمتعا بتلك النهضة .

والـذي لا ريب فيه أن الاحتكـاك الثقـافي بالآخرين لا يسلم من الآثار الضارة ، ولكنها لا تطغي على الآثار المفيدة ، مادامت الأمة الناقلة لثقافة غيرها تتمتع بحصانة فكرية ، تحول بينها وبين الذوبان في سواها .

وكانت الأمة الإسلامية حين ترجمت ما أطلق عليه تاريخيا العلوم الدخيلة ، أو علوم الأوائل تتمتع بحصانة فكرية مصدرها العقيدة التي تؤمن بها ، وتدعوا إليها ، وتدافع عنها ، ولهذا انتفع المسلمون بما ترجموا ، فقد قاموا بتفسير ما نقلوه عن غيرهم وأضافوا إليه وكتبوا فيه ، وبذلك حققوا ما حققوا من السبق والابتكار في مختلف العلوم والفنون .

على أن المسلمين قد أسدوا - بترجمة هذه العلوم - يدا جليلة للبشرية كلها ؛ لأنهم أنقذوا هذا التراث العلمي من الضياع ، وقدموه للعالم بشروحه وتعليقاته المفيدة وإضافاته الجديدة ، فكان النبراس الذي بدد غياهب العصور الوسطى في أوربا ، وأنار لها طريق الحضارة والمدنية المعاصرة .

وإذا كان عصر ابن قتيبة من الناحية العلمية عصرا مجيدا ، وكان في تاريخ الأمـة العصر الـذهبي للعـطاء العلمي ، فإن هذا العصر كان عصر الجـدل والصراع الفكـري ، بين مختلف الطوائف والنزعات ، وقد وضعت بذور هذا الجدل والصراع بعد الفتنة الكبرى وانقسام الأمة ، ونمت هذه البذور بعد أن

---

(٨) انظر تاريخ الدولة البعاسية للدكتور جمال الدين الشيال ص٤٥ ط القاهرة .

اعتزل واصل بن عطاء (ت: ١٣١هـ) مجلس الحسن البصري (ت: ١١٠هـ) ، وانفرد بحلقة علمية كان تلاميذها الطبقة الأولى من المعتزلة* . وبلغ ذلك الصراع ذروته بعد فتنة القول بخلق القرآن في عهد المأمون .

ويعد ما نجم عن الاحتكاك بالثقافات الأجنبية وتياراتها الفكرية المتباينة من آثار ضارة من أهم روافد هذا الصراع الفكري الذي كان في جملته صراعا بين الإسلام والقوى المضادة التي كان وَكْدها الأول زعزعة القيم ، وبلبلة المفاهيم ونشر الاضطراب العقائدي ، والغاية من ذلك مقاومة المد الإسلامي بالعلم بعد أن عجزت تلك القوى عن مقاومته بالسيف .

وإذا كان للمعتزلة دور مجيد في الدفاع عن الإسلام ضد أعدائه من اليهود والنصارى والزنادقة فإنهم أخطأوا خطأ فاحشا حين أرادوا فرض آرائهم الكلامية بالقوة على غيرهم ، فضلا عن أن تلك الآراء تناولت بعض آيات الكتاب العزيز بالتأويل الذي لم يلق من جمهور الأمة إلا الضيق والنفور ، كما تناولت السنة النبوية بالدراسة التي قضت على ما روى منها بالاضطراب والتناقض ، وألقى كل هذا وغيره بظلاله القاتمة على تاريخ المعتزلة ، مما أزرى بجهدهم العقلي في الدفاع عن الإسلام ، وطبع كل مواقفهم الفكرية بوجه عام بطابع مقاومة السلفية ، وإقحام المصطلحات الأجنبية بما تحمله من أوشاب الوثنية في الدراسات الكلامية التي أصبحت معقدة على أيديهم ، ولا تقدم العقيدة الإسلامية في صفائها ونقائها ويسرها ، مما تمخض عنه فيما بعد انحراف علم الكلام عن مهمته ، وعدم القيام برسالته كما ينبغي أن تكون .

ولا سبيل للحديث عن كل مظاهر هذا الصراع في القرن الثالث ، ويعنينا

---

* المعتزلة : يسمون بأصحاب العدل والتوحيد ، ويلقبون بالقدرية ، واعتزالهم يدور على أربع قواعد : الأولى القول بنفي صفات الباري تعالى من العلم والقدرة ، ويردون جميع الصفات إلى كونه تعالى عالما قادرا ، والثانية : القول بالقدر ؛ أي أن كل إنسان خالق لفعله ، فهو مخير وليس مسيرا كما تقول الجبرية ، والثالثة : القول بالمنزلة بين المنزلتين في حكم مرتكب الكبيرة ، والرابعة : القول في أصحاب الجمل وصفين أن أحدهما مخطىء لا بعينه .

في هذه الدراسة تناول جانب منه ، وهو الصراع الذي كان بين المتكلمين وأهل الرأي من جهة ، والفقهاء والمحدثين من جهة أخرى .

على أن كل صراع فكرى إذا تغيا تمحيص الحقائق ، وتدعيم الآراء بالحجة القوية وصولا إلى أصحها وأولاها بالأخذ ، فإنه يصبح عملا علميا مبرورا ، ولكن إن تغيا الفَلج بالحق والباطل ، ولجأ إلى التدليس والتمويه ، وتبادل التهم بعقم التفكير وضيق الأفق ، فإنه لا يكون مفيدا ، بل ويصبح أدنى إلى المهاترات منه إلى الجدل العلمي ، والحوار الفكري .

ويزداد الأمر سوءاً إذا بلغ الاتهام بين المختلفين في الآراء الرمي بالفسق والزندقة والكفر ، وقد حدث شيء من هذا - للأسف - في ذلك الصراع الذي عرفته الحياة الفكرية الإسلامية في بعض عصورها .

وكان لابن قتيبة اليد الطولي في الصراع بين المتكلمين والمحدثين ، لقد رد على المتكلمين وأهل الرأي فيما ذهبوا إليه حول الآيات المتشابهات ، وكذلك حول الأحاديث التي ظنوا أنها تعارض الكتاب أو العقل أو الاجماع أو يعارض بعضها بعضا ، وألف في هذا أكثر من كتاب ، وإن جاء ما كتبه في تأويل مختلف الحديث أغزر مادة ، وأقوى حجة وأكثر وفاء بالموضوع ، ولهذا عده المؤرخون من أئمة المحدثين الذين ناضلوا عن السنة ، ونافحوا عن الروح الإسلامية ضد التيارات الدخيلة فهو في أهل الحديث والدفاع عنهم كالحافظ في أهل الاعتزال ، والذود عن آرائهم ، والإمامة فيهم ، وتفصيل القول في هذا سيرد بعد التعريف بابن قتيبة ، وإلقاء الضوء على أهم ملامح ثقافته ومؤلفاته.

ابن قتيبة ، نشأته وتطور حياته :

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة [٩] ، ولد سنة ٢١٣هـ ، وقد اختلف المؤرخون في موطن ولادته ، فمنهم من قال إنه ولد بالكوفة كابن الانباري

(٩) قتيبة بضم القاف وفتح التاء وسكون الباء ، مأخوذ من القِتْب أو القَتب ، ويطلق على المعي والحوايا وإكاف البعير ، وجاء في كتب اللغة أن قتيبة بطن من باهلة .

وابن النـــديم ، وأخـــذ بهذا بعض المحـدثـين كجـرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ، ومن هنا يطلق عليه الكوفي ، ومنهم من ذهب إلى أنه ولد في بغداد كالخطيب في تاريخه ، وأخذ بهذا بعض المعاصرين كالزركلي في الأعلام .

وجاء في مقدمة كتاب «عقائد السلف[10]» التي كتبها محققا الكتاب أن ابن قتيبة ولد بمرو ، وهذا غير صحيح[11] ، وإنما الذي ولد بمرو هو والده ، ونسبة هذا الإمام إلى مدينة مرو جاء تبعا لنسبة والده إليها .

ورجـح الدكتور عبد الحميد الجندي في رسالته[12] عن ابن قتيبة أنه ولد بالكوفة ، ثم سكن بغداد ؛ لأن من ذكر ذلك أسبق تاريخيا من غيرهم .

ولم يحدثنا المؤرخون عن طفولة ابن قتيبة ونشأته ، وكل ما يعرف عنه أنه قضى معظم حياته في بغداد ، وأخذ عن علمائها - وهي في أوج مجدها العلمي - علوم الحديث والفقه واللغة والتفسير والنحو والأدب ، والأخبار ، وأقام وقتا من حياته في «الدينور»[13] أثناء ولايته القضاء بها ، ولذلك ينسب إليها .

وابن قتيبة من مسلمي الموالي ، وقد ولد من أبوين متعربين ، فاسم أبيه وجده يدلان بوضوح على أن كليهما كان مسلما في القرن الثاني الهجري .

ولإيمان ابن قتيبة الصادق ، ويقينه العميق تنزه عن أهواء الشعوبية ونزعاتها الحاقدة ، بل وقف ضد هذه النزعات ، وحمل عليها حملة قوية مؤكدا ضلالها وفسادها ، وأن الذين يقفون من ورائها قد أعماهم التعصب الجنسي عن الحقيقة الساطعة ، وهي أن العرب أمة لها أمجادها وفضلها على الأمم ، ويكفي أن الله تبارك وتعالى اصطفى منهم خاتم رسله ، وجاء آخر وحيه بلسان عربي مبين .

---

(١٠) «عقائد السلف» كتاب يضم أربعة كتب للأئمة أحمد بن حنبل والبخاري وابن قتيبة وعثمان الدارمي ، وقد حققه الدكتوران علي سامي النشار وعمار الطالبي ، ونشرته منشأة المعارف بالاسكندرية .

(١١) انظر ترجمة ابن قتيبة في كتاب تأويل مختلف الحديث ص٥ ط دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٤١٥هـ .

(١٢) انظر ابن قتيبة العالم الناقد الأديب للدكتور عبد الحميد سند الجندي ص٩٧ ، سلسلة أعلام العرب العدد : ٢٢ .

(١٣) الدينور بلدة من أعمال الجبل قرب «قرميسين» ، وهذه تبعد عن همذان نحو ثلاثين فرسخا .

وبلغ حب ابن قتيبة للعرب - وهو حب مرده إلى حبه للإسلام ونبيه - أن ألف عنهم كتابا أشاد فيه بهم إشادة طيبة ، وهو كتاب العرب أو تفضيل العرب أو فضل العرب ، على اختلاف بين مترجمي ابن قتيبة في اسم هذا الكتاب ، ولكنه اختلاف لا يؤثر على مضمونه الذي يبطل مزاعم الشعوبية ، ويظهر مفاخر العرب ، وذلك في أسلوب يفيض بحرارة العاطفة ، وشبوب الوجدان .

ويبدو مما كتبه الأقدمون - على قلته - عن ابن قتيبة أنه عاش حياة مستقرة ليس فيها كثير من الترحال ، وأنه أنفق الشطر الأكبر من عمره في بغداد في طلب العلم وتصنيف الكتب وإملائها ، وأنه لم يكن يحرص على توثيق علاقته بكبار رجال الدولة ، فلم يعرف عنه اتصال بهم ، أو سعي إليهم ، أو تقرب منهم ، حتى لا يشغله عما هو أثير لديه مجلس وزير أو لقاء كبير ، فضلا عن اعتداده بنفسه وعزوفه عما لا يليق بعالم أن يفعله .

ثقافته :

تمثل ثقافة ابن قتيبة كل ألوان المعرفة في عصره ، فقد تلقى العلم عن شيوخ كثيرين ، تجاوز عددهم الأربعين ، وهؤلاء الشيوخ تنوعت ثقافاتهم ومعارفهم ، فمنهم المفسر والمحدث والفقيه والمتكلم واللغوي والأديب والمنطقي والمؤرخ .

ومن شيوخه من روى عنه قليلا ، ومنهم من لازمه وأخذ عنه كثيرا مثل أبي حاتم السجستاني (ت : نحو ٢٥٠ هـ) وكان عالما ضليعا في العربية والشعر ، ومثل اسحاق ابن راهويه (ت : نحو ٢٣٥ هـ) وهو من كبار المحدثين والفقهاء ، فهو من شيوخ البخاري ، ومن أصحاب الإمام أحمد .

ولم يكن ابن قتيبة يأخذ العلم عن الشيوخ فحسب ، أو يقصر ثقافته على علوم الدين ، فقد قرأ علوم الهنود واليونان والفرس ، وقرأ التوراة والأنجيل ، وأفاد منها في كتبه ، وبخاصة في عيون الأخبار وغريب الحديث وتأويل مشكل الحديث ، وتأويل مشكل القرآن والمعارف[١٤] .

(١٤) انظر مقدمة تحقيق «غريب الحديث» للدكتور عبد الله الجبوري ط إحياء التراث الإسلامي - العراق .

وكان إلى جانب الأخذ عن الشيوخ والقراءة يستعين أحياناً بمن يترجم له ما لا يعرفه من اللغات(١٥) .

وأعان ابن قتيبة على ما بلغ إليه من غزارة المعرفة واتساع الثقافة وتنوعها ذكاء قوي ، وطبع سليم ، وفهم في العلم شديد ، فلا غرو أن أصبح مثالا للعالم المسلم الممتاز في القرن الثالث الهجري(١٦) .

مؤلفاته :

خلف ابن قتيبة مؤلفات بلغ تعدادها زهاء ثلاثمائة مصنف ، وبعض هذه المصنفات من عدة أجزاء كعيون الأخبار وغريب الحديث ، وقد فقدت معظم مؤلفات هذا الإمام ، ولم يصلنا منها إلا نحو عشرين كتابا منها : الأنواء ، وأدب الكاتب وغريب القرآن وغريب الحديث وعيون الأخيار ، ومشكل القرآن ، وتأويل مختلف الحديث ، وفضل العرب ، والمعاني الكبير ، وطبقات الشعراء ، والأشربة ، وإصلاح الغلط ، والتفقيه ، والخيل ، وإعراب القرآن ، والاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ، والمعارف ، والميسر والقداح ، والمسائل والجوابات .

ونسب إلى ابن قتيبة كتاب الإمامة والسياسة ، وهو ليس من تأليفه ؛ لأن ما ورد في هذا الكتاب من الأخبار والنصوص يتعارض تاريخيا مع عصر ابن قتيبة ، ويتناقض علميا مع ما جاء في بعض كتبه التي لا شك في نسبتها إليها(١٧) .

وإذا كان المجال لا يسمح بالتعريف بكل كتاب من هذه الكتب فإن بينها سمات عامة ، أهمها مايلي :

أولاً : اتفقت كلمة العلماء والمؤرخين على أن ابن قتيبة من أحسن العلماء

(١٥) قال ابن قتيبة في ص٣٠٦ من تأويل مختلف الحديث ، وهو بصدد حديثه عن الكي : ورأيت بخراسان رجلا من أطباء الترك ، معظما عندهم يعالج بالكي . وأخبرني وترجم ذلك عنه مترجمه أنه يشفي بالكي من الحمى والبرسام . . الخ .

(١٦) انظر ابن قتيبة للدكتور الجندي ص١٨٤ .

(١٧) انظر المصدر السابق ص١٧١ .

ترصيفا ، وأجودهم تصنيفا ، وأن كتبه من خير ما ألف في بابها . وأن كلا منها في موضـوعـه مصـدر أصيل ، ولذلك شاعت بين العامة والخاصة ، والشرق والغرب ، وقد ذكر الإمام ابن تيمية أن أهل المغرب كانوا يعظمون ابن قتيبة ، ويقولون : كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه[١٨] .

ثانياً : يسود الطابع اللغوي والأدبي مؤلفات ابن قتيبة ، فهو يستعين باللغة ونصوصها في توضيح آرائه ، والرد على خصومه ، ولا يعني هذا أن ذلك الطابع طغى على الموضوعات الأساسية لكل كتاب ، وإنما كل ما يدل عليه أن الرجل كان إمـاما ضليعا في اللغة والأدب ، وأنه عول عليهما في مصنفاته ، فجاءت مزاجا من البحث العلمي ، والدرس اللغوي والأدبي .

ثالثاً : خص ابن قتيبة كل كتاب بمقدمة بين فيها الغرض منه ، والدافع إلى تأليفه ، وهو بهذا يعد من أوائل العلماء الذين عنوا بكتابة المقدمات لمؤلفاتهم .

رابعاً : تمثل مؤلفات ابن قتيبة في مجموعها خط دفاع عن الفكر الإسلامي ضد الثقافات الدخيلة ، والأفكار الباطلة ، فهو قد قاوم الشعوبية ، ودافع عن القرآن والحديث ، ورد الشبهات التي أثارها المتكلمون وغيرهم ، وكان بكل ما صدر عنه لسان أهل السنة وكاتبهم الأعظم على حد قول الإمام ابن تيمية[١٩] .

خامساً : وكما تمثل هذه المؤلفات خط دفاع عن أصالة الفكر الإسلامي ، تمثل أيضاً جميع معارف القرن الثالث الهجري ، ويغلب عليها التنسيق والوحدة الموضوعية .

تلك أهم السمات التي تجمع بين مؤلفات ابن قتيبة ، ذلك العالم الجليل ، والأديب اللغـوي المتمكن ، والمنـافـح البارع عن الحضارة الإسلامية لوقايتها أوشاب الحضارات الوثنية التي حاولت غزو هذه الحضارة ، وتقويض دعائمها تحت ستار مزيف من العلم والفكر .

---

(١٨) انظر تفسير سورة الاخلاص ص١٢٠ ط مكتبة القاهرة ، وقال ابن خلكان في وفيات الاعيان جـ٣ ص٤٢ تحقيق الدكتور احسان عباس . وتصانيفه كلهات مفيدة .

(١٩) انظر المصدر السابق .

عقيدته :

أجمع أعلام المؤرخين والمحدثين على أن ابن قتيبة كان لسان أهل السنة وخطيبهم ، وأنه كان ثقة في دينه وعلمه ، وكان صادقا فيما يرويه ، ومع هذا لم يسلم من الاتهام في عقيدته ، فقد رويت عدة أقوال منها ما يحكم عليه بأنه كان من المشبهة ، ومنها ما يذهب إلى أنه كان يرى رأي الكرامية ، أو أنه منحرف عن العترة ميال إلى «النَّصْب» أو أنه غير ثقة فيما يروي(٢٠) .

وكل هذه الأقوال تهم باطلة ، وآراء فاسدة ، فليس في مؤلفاته التي بأيدينا أثر لها ، أو حجة عليها ، بل على العكس تؤكد هذه المؤلفات سلامة عقيدة ابن قتيبة مما اتهم به ، وأنه كان كما أجمع كبار المؤرخين من أعلام أهل السنة ، والجماعة ، ولو عرف بالكذب أو عدم الثقة فيما يروى كما زعم خصومه لرغب الناس عنه ، ولما انتشرت كتبه بين الخاصة والعامة ، ولما ذهب بعضهم إلى أن الوقيعة فيه ضرب من الزندقة ، كما ذهب أهل المغرب(٢١) .

وفاته :

اختلف المؤرخون في سنة وفاة ابن قتيبة ، فمنهم من ذكر أنه توفي في سنة ٢٧٠هـ ، ومنهم من قال إنه توفي في سنة ٢٧٦هـ ، وبعضهم ذهب إلى أنه مات سنة ٢٧١هـ .

والراجح إنه توفي سنة ٢٧٦هـ ؛ لأن من المؤرخين من ذكر أن قاسم بن أصبغ البياني نسبه إلى بيّانة ، وهي بلدة أندلسية بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلا ، - رحل إلى المشرق سنة ٢٧٤هـ وأخذ العلم عن ابن قتيبة ، وروي عنه .

(٢٠) انظر مقدمة تحقيق كتاب «غريب الحديث» للدكتور عبد الله الجابوري ص١٩ ، ٢١ ، والمشبهة هم الذين يشبهون ذات الباري أو صفاته بذات أو صفات غيره ، والكرامية اتباع محمد بن كرام ، وهم أشبه بالثنويه ولهم آراء عجيبة ، وفضائح كثيرة كما قال البغدادي (وانظر الفرق بين الفرق) تحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد ص٢١٥ ، ٢٢٥ ، والنصب لقب يحمل معنى السوء يطلق على من مذهبه الميل عن آل البيت - عليهم السلام .

(٢١) انظر تفسير سورة الاخلاص ص١٢٠ .

ولما كانت هذه السنة لم ترد في سنوات وفاة ابن قتيبة عند أحد من المؤرخين كان الراجح أنه توفي ٢٧٦هـ .

وكانت وفاته فجأة ، فقد قيل إنه أكل «هريسة» ساخنة ويبدو أنها كانت فاسدة ، فأصابته حرارة ، ثم صاح صيحة شديدة ثم أغمى عليه بعض الوقت ، ثم اضطرب ساعة ، ثم هدأ ، فما زال يتشهد إلى وقت السحر ، ثم مات رحمه الله تعالى[٢٢] .

ويتضح من تاريخ ولادة ابن قتيبة ووفاته أنه عاش حياة قصيرة نسبيا ، فلم يعمر كمعاصره الإمام الطبري (٢٢٥ - ٣١٠هـ) ، أو الجاحظ (١٥٩ - ٢٥٥هـ) أو المبرد (٢١٠ - ٢٨٥هـ) ، ومع هذا خلف ثروة علمية تشهد بأنه قضى حياته كلها جهادا موصولا في البحث والدرس ، والتحصيل والتأليف ، وأنه من ثم أسهم بنصيب موفور في أوجه النشاط الثقافي التي وعاها عصره ، ويعد خير من يمثل ثقافة هذا العصر بكل ما فيها من ألوان المعرفة[٢٣] .

تأويل* مختلف الحديث :

كتاب تأويل مختلف الحديث من أهم مؤلفات ابن قتيبة الدفاعية والهجومية معا ، فقد ناقش فيه دعاوي التعارض في الأحاديث ، وكشف عن زيفها كما هاجم فيه المتكلمين ، وأهل الرأي أولئكم الذين تبنوا تلك الدعاوي وروجوا لها .

قال ابن قتيبة : ونحن لم نرد في هذا الكتاب أن نرد على الزنادقة المكذبين بآيات الله عز وجل ورسله . وإنما كان غرضنا الرد على من ادعى على الحديث التناقض ، والاختلاف ، واستحالة المعنى من المنتسبين إلى المسلمين[٢٤] .

والكتاب فضلا عن ذلك يكاد يقدم كل ألوان المعرفة التي ألم بها ابن قتيبة ،

---

(٢٢) انظر وفيات الاعيان جـ٣ ص٤٣ .

(٢٣) انظر ابن قتيبة للدكتور الجندي ص٤٢٩ .

* أول الكلام وتأوله، فسره وبين المراد منه والتأويل التفسير وتبين ما يؤول إليه الأمر من الكلام ، فتأويل مختلف الحديث تفسير ما بين الأحاديث من اختلافات وبيان وجه الحق فيها .

(٢٤) تأويل مختلف الحديث ص١١٧ .

ففيه التفسير والحديث والكلام والفقه والأصول واللغة والأدب والعلوم على تفاوت بين هذه المعارف .

أما منهج دراسة هذا الكتاب فيقوم على ما يلي :

١ - موضوع الكتاب ، وجملة ما اشتمل عليه من الأحاديث .
٢ - تقسيم الأحاديث من حيث الجهة التي توهم التعارض .
٣ - منهج ابن قتيبة في نفي التعارض بين الأحاديث .
٤ - بين ابن قتيبة ومن ألفوا في مختلف الحديث .
٥ - القيمة العلمية لكتاب تأويل مختلف الحديث .
٦ - مدى الحاجة في العصر الحاضر إلى مثل هذه الدراسة حول السنة .

١ - موضوع الكتاب :

موضوع كتاب تأويل مختلف الحديث كما أشرت أكثر من مرة فيما سبق الأحاديث التي يوهم ظاهرها التعارض ، وبيان أنه لا تعارض بينها ، بيد أن ما ينبغي إضافته إلى هذا أن ابن قتيبة في مقدمة كتابه أومأ إلى الدافع الذي حمله على تأليف هذا الكتاب ، كما أنه عقد بعد المقدمة بابا جاء أشبه ما يكون بالتمهيد لما عرض له ، وتناوله بالدرس العلمي .

وقد استهل مقدمة الكتاب بالدعاء لمن كتب[٢٥] إليه يعلمه بما وقف عليه من ثلب أهل الكلام أهل الحديث ، وامتهانهم واسهابهم في الكتب بذمهم ورميهم بحمل الكذب ، ورواية المتناقض حتى وقع الاختلاف ، وكثرت النحل ،

---

(٢٥) ذكرت الدكتورة عزية علي طه عن جهود المحدثين في تأويل مختلف الحديث المنشور بمجلة الوعي الإسلامي العدد : ٢٩١ ص٢٢ أن الذي كتب لابن قتيبة هو أبو الحسين عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المعتمد على الله (ت : ٢٦٣هـ) وذلك نقلا عن مقدمة محقق كتاب تأويل مختلف الحديث ط. دار الجبل بيروت ، وهذه الطبعة لا تختلف عن طبعة دار الكتب العلمية ، ولكن ما جاء في تلك المقدمة وهو صورة مما كتبه ابن خلكان في وفيان الأعيان يتعلق بكتاب أدب الكاتب وليس بكتاب تأويل مختلف الحديث ، وابن قتيبة لم يفصح عن اسم من طلب منه أن يكتب هذا الكتاب ، كما أن أحدا من المؤرخين لم يشر إليه .

وتقطعت العِصَم ، وتعادى المسلمون ، وأكفر بعضهم بعضا ، وتعلق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث . ثم أورد بعض ما تعلقت به كل طائفة من الأحاديث فيما تذهب إليه من الآراء كالخوارج والمرجئة ، والقدرية والرافضة ، كما أورد أيضا بعض الآثار التي أخذ بها المخالف لتلك الطوائف(٢٦) .

وختم المقدمة بقوله : هذا ما حكيت في طعنهم على أصحاب الحديث ، وشكوت تطاول الأمر بهم على ذلك من غير أن ينضح عنهم ناضح ، ويحتج لهذه الأحـاديث محتج ، أو يتأولها متأول ، حتى أنِسوا بالعيب ، ورضوا بالقذف ، وصاروا بالإمساك عن الجواب كالمسلِّمين ، وبتلك الأمور معترفين .

وتذكر أنك وجدت في كتابي المؤلف في «غريب الحديث»(٢٧) بابا ذكرت فيه شيئا من التناقض عندهم ، وتأملته فأملت بذلك أن تجد عندي في جميعه مثل الذي وجدته من الحجج ، وسألت أن أتكلف ذلك محتسبا للثواب ، فتكلفته بمبلغ علمي ومقـدار طاقتي ، وأعدت ما ذكرت في كتبي من هذه الأحاديث ليكون الكتاب تاما جامعا للفن الذي قصدوا الطعن به(٢٨) .

فالدافع الذي حمل ابن قتيبة على تأليف كتابه هو الرد على الطاعنين على أهل الحـديث ، وتفنيد شبهاتهم ، وقد فعل ذلك بعد أن تلقى رسالة ممن ذكر له بعض مواقف أهل الكلام والرأي من الأحاديث ، وما تعلقوا به منها لنصرة ما يدعـون إليه ، وأن الـذي كتب له بهذا أشـار إلى أنـه وجد في كتاب «غريب الحديث» بابا للتناقض عند أهل الكلام ، وأنه يأمل أن يكون لدى ابن قتيبة في كل ما يدعي التناقض عليه من الأحاديث الحجج التي أوردها في كتاب الغريب .

وقد استجاب ابن قتيبة لهذه الدعوة وتكلف لها ، وراجع كتبه وجمع منها ما أورده فيها من الأحاديث التي يوهم ظاهرها التعارض ، حتى يكون كتابه جامعا

---

(٢٦) انظر تأويل مختلف الحديث ص١١ - ١٨ .

(٢٧) انظر «غريب الحديث جـ١ ص٢٦٨ تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري .

(٢٨) انظر تأويل مختلف الحديث ص١٩ .

لكل هذه الأحاديث ، ومبطلا لكل الدعاوي التي أثارها المتكلمون ، ومن هؤلاء من ارتدى ثوب الإسلام وهو من ألد أعدائه حتى يحارب هذا الدين بسلاح الحكمة والمعقول كما كانوا يزعمون .

ويستدل بما جاء في هذه المقدمة على أن تأويل مختلف الحديث ليس من أوائل مؤلفات ابن قتيبة ، وأنه كتبه بعد أن استحصد علمه ، ورسخت في التأليف قدمه .

أما ما كتبه وكان أشبه ما يكون بالتمهيد فهو ما وصف به أصحاب الكلام وأهل الرأي وأصحاب الحديث بما يعرف به كل فريق ، وهو في هذا يرجو ألا يطلع أهل العقل منه على تعمد لتمويه ، ولا إيثار لهوى ، ولا ظلم لخصم(٢٩) .

وابتدأ حديثه عن أصحاب الكلام وبخاصة المعتزلة فذكر أنه تدبر مقالتهم فوجدهم يقولون على الله ما لا يعلمون ، ويفتنون الناس بما يأتون ، ويبصرون العيب في غيرهم ، والعيب قد استحوذ عليهم ، ويتهمون غيرهم في النقل ، ولا يتهمون آراءهم في التأويل .

وأخذ على أصحاب الكلام أنهم حادوا في فهم الكتاب والسنة عن سواء السبيل وبين أن ما يلجأ إليه هؤلاء من المصطلحات الوافدة كالعرض والجوهر والطفرة والتولد لا يمكن أن يدرك بها معاني الكتاب العزيز والسنة النبوية ، وأومأ إلى أن أصحاب الكلام لو كانوا يريدون الحق لردوا المشكل من تلك المعاني إلى أهل العلم بها ، ولكن يمنعهم من ذلك طلب الرياسة ، وحب الاتباع واعتقاد الأخوان بالمقالات .

وإذا كان أصحاب الكلام كما يدعون أهل نظر ، ولهم وسائلهم العقلية في الاستنباط كالقياس ، فقد كان الأحرى بهم ألا يختلفوا ، ولكنهم لا يلتقون على رأي ، فهم أكثر الناس اختلافا ، لا يجتمع إثنان من رؤسائهم على أمر واحد في الدين .

ولو كان اختلافهم في الفروع لا تسع لهم العذر كما اتسع لأهل الفقه ،

---

(٢٩) المصدر السابق .

ولكن اختلافهم في الأصول كالتوحيد وصفات الله وفي نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار . . الخ .

وخلص من هذا إلى نتيجة وهي أن الرغبة عن أصحاب الحديث إلى أصحاب الكلام تعني خروجا من اجتماع إلى تشتت ، ومن نظام إلى تفرق ، ومن أنس إلى وحشة ، ومن اتفاق إلى اختلاف .

وعرض بعد ذلك لبعض أعلام أصحاب الكلام والرأي ، فتحدث عن كل من النظام (ت : ٢٣١هـ) وأبي الهذيل العلاف (ت : ٢٣٥هـ) وعبيد الله بن الحسن (ت : ٠٠٠) وصاحب البكرية ، وهو بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد وهشام بن الحكم (ت : نحو١٩٠هـ) وثمامة بن الأشرس (ت : ٢١٣هـ) ومحمد بن الجهم البرمكي (ت : ٠٠٠) والإمام أبي حنيفة (ت : ١٥٠هـ) والجاحظ .

وكان في حديث عن هؤلاء الأعلام يورد ما يعرفه عن كل منهم من خلال ، ثم يذكر طرفاً من آرائه مع مناقشتها وبيان فسادها ، وقد تفاوت هذا الحديث من حيث الكم من علم لآخر ، وجاء ما كتبه عن النظام أطول مما كتبه عن غيره ، فقد استغرق نحو عشرين صفحة ، على حين جاء ما كتبه عن كل ما سواه في نحو هذا القدر من الصفحات .

والنظام كما يرى ابن قتيبة شاطر من الشطار ، يغدو على سكر ويروح على سكر ، ويرتكب الفواحش والشائنات .

وهو في آرائه يخالف ما أجمع عليه المسلمون لما استحسن ، كما أنه يطعن على كبار الصحابة ، ويتهم بعضهم بالكذب ، وما حمله على ذلك إلا العداوة لهم ، وله في الكتاب والحديث أقوال ليس عليها أثارة من علم .

وأما أبو الهذيل العلاف فهو كذاب أفّاك ، وله أقاويل في الجبر والاختيار ونعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، تدل على مخالفة صريحة للكتاب والسنة .

وليس عبيد الله بن الحسن إلا رجلا مضطرب التفكير متناقض الأحكام ، وهو ما لا ينبغي أن يصدر عن متكلم من أهل القياس والنظر .

ويعد صاحب البكرية من أحسن أهل الكلام حالا في التوقي ، وهو في آرائه

يخلط بين العادات والعبادات ، ويجنح إلى الافراط والتفريط . وكان يوافق النظام في دعواه أن الإنسان هو الروح دون الجسد[٣٠] .

وهشام بن الحكم من غلاة الرافضة ، وله آراء في الله تعالى يتحرج من حكايتها على حد قول ابن قتيبة ، وهو من المسرفين في القول بالجبر .

أما ثمامة فهو رقيق الدين يستهزىء بالإسلام والمسلمين ، ويطلق لسانه فيما لا يصح أن يتحدث به رجل يعرف الله تعالى .

ومحمد بن الجهم ، رجل أعرض عن كتاب الله ، واتخذ كتب ارسططاليس مصحفه ، وأقواله وأفعاله تدل على ضعف عقيدته وسخريته من السنة .

ثم تحدث ابن قتيبة عن أهل الرأي ، فوصفهم بما وصف به أهل الكلام من الاختلاف والتناقض ، ونقم على أبي حنيفة تحكمه في الدين ومخالفته للقرآن والسنة[٣١] ، وأشار إلى أن أشد أهل العراق في الرأي والقياس الشعبي ، وأسهلهم فيه مجاهد .

وفي غضون الحديث عن أهل الرأي قال ابن قتيبة : ولم أرا أحداً ألهج بذكر أصحاب الرأي وتنقصهم والبعث على قبيح أقاويلهم والتنبيه عليه من اسحاق ابن ابراهيم الحنظلي المعروف بابن راهويه . وأورد بعد هذا بعض ما أخذه ابن راهويه على أهل الرأي .

وكان الجاحظ آخر من تحدث عنه من المتكلمين ، وقد نعته بأنه من أحسنهم للحجة استثارة ، وأشدهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه ، وهو إلى هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل .

وأنهى ابن قتيبة حديثه عن أصحاب الرأي وأصحاب الكلام بذكر بعض آراء المتكلمين في الفروع الفقهية وفي تفسير القرآن الكريم ، موضحا أنهم يردون

---

(٣٠) انظر الفرق بين الفرق ص ٢١٥ .

(٣١) وصف ابن قتيبة أبا حنيفة وهو يتحدث عن أصحاب الحديث بأنه كان في الفتيا ولطف النظر واحد زمانه (وانظر تأويل مختلف الحديث ص٧٥) .

التفسير إلى مذاهبهم ، وأن تفسير الروافض أشد فسادا ، لأنهم يَدَّعون علم باطن القرآن ، ولذلك كانوا أكثر أهل البدع افتراقا ونحلا(٣٢) .

وأما أصحاب الحديث فقد استهل ابن قتيبة كلامه عنهم بقوله : فأما أصحاب الحديث فإنهم التمسوا الحق من وجهته ، وتتبعوه من مظانه ، وتقربوا من الله تعالى باتباعهم سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلبهم لآثاره وأخباره ، برا وبحرا ، وشرقا وغربا .

ثم أشار إلى جهد المحدثين في طلب الأخبار والتنقير عنها ، وما كان لما بذلوه من أثر في الانقياد للسنن والحكم بها .

وإذا كان هناك من يطعن عليهم بحمل الضعيف ، فإن الحق أنهم ميزوا فيما حملوا بين الغث والسمين ، والصحيح والسقيم ، ونبهوا على ذلك .

ويرى ابن قتيبة أن المحدثين ليسوا بدعا من الناس فلهم بعض الأخطاء كما لغيرهم ، بيد أنه يعقب على هذا بلوم المحدثين الذين لا يشتغلون بعلم ما كتبوا ، أو التفقه بما جمعوا .

واستطرد فذكر آراء بعض المتكلمين في أصحاب الحديث، ورد عليها وختم كلامه عن المحدثين بأنهم لا يردون شيئا من أمر الدين إلى استحسان، ولا إلى قياس ونظر ، ولا إلى كتب الفلاسفة المتقدمين ، ولا إلى أصحاب الكلام المتأخرين .

فإن ادعوا عليهم الخطأ بحملهم الكذب والمتناقض قيل لهم :

أما الكذب والغلط والضعيف فقد نبهوا عليه على ما أعلمتك ، وأما المتناقض فنحن مخبروك بالمخارج منه ، ومنبهوك على ما تأخر عنه علمك ، وقصر عنه نظرك وبالله الثقة ، وهو المستعان(٣٣) .

ومن هذا الذي قاله ابن قتيبة في أصحاب الكلام والرأي وأصحاب الحديث يظهر مبلغ الخلاف والخصومة بين هؤلاء وأولئك ، إنه خلاف عنيف ، وخصومة

---

(٣٢) انظر تأويل مختلف الحديث ص٦٩ .

(٣٣) المصدر السابق ص٨٢ .

مستحكمة ، حملت كل طرف على أن يوجه للطرف الآخر شتى التهم ، ولعل هذا الإمام أراد بها قاله قبل أن يتناول ظاهرة التعارض المدعاة بالنقد والفحص أن يقدم للقارىء نبذة عن الذين يثيرون ما يثيرون من الشبهات حول حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليعلم أنهم ليسوا أهدى سبيلا ، ولا أقوم قيلا ، وأنهم لا يمكن أن يكونوا أغير على الدين من أهل السنة .

وإذا كان لما قاله ابن قتيبة في أصحاب الكلام وبخاصة المعتزلة وجه من الصحة ؛ لما أومأت إليه في الحديث عن الصراع الفكري في القرن الثالث الهجري فإن ما قاله في أهل الرأي من الفقهاء يحتاج إلى تعليل وتحليل للوقوف على مبلغ الصحة فيه .

وأهل الرأي من الفقهاء مصطلح تاريخي يطلق على مدرسة العراق الفقهية في مقابلة مدرسة أهل الحديث التي كان مركزها الأول المدينة المنورة .

وهذا الاطلاق على مدرستي العراق والمدينة اطلاق نسبي[٣٤] ، فكلا المدرستين تأخذ بالأثر وتستخدم النظر ، ولكن نسبة النظر لدى مدرسة العراق أغلب من نسبة الأثر ، والعكس صحيح لدى مدرسة المدينة ، ولذلك أسباب علمية ورد الحديث عنها في كتب تاريخ الفقه وبعض كتب الأصول .

فلماذا كان موقف ابن قتيبة من أهل الرأي كموقفه من أهل الكلام ، بل إنه يعدهما طائفة واحدة تمثل جبهة مضادة لأهل الحديث ؟

إن هذا الموقف له مسوغاته وأسبابه وليس موقفا متحاملا ، وذلك لأن فقه أهل الرأي فقه يعتمد على النظر ، فهو يلتقي مع المعتزلة في منهجهم العقلي ، ومن ثم تعصب بعضهم له ، بل كان كثير منهم من أتباعه ومن العاملين على نشره والاحتجاج له ، مثل محمد بن شجاع الثلجي المتوفي سنة ٢٥٦هـ وفيه يقول ابن النديم : «وهو الذي فتق فقه أبي حنيفة ، واحتج له ، وأظهر علله ، وقواه بالحديث وحلاه في الصدور»[٣٥] .

(٣٤) انظر المحاضرات المغربيات للشيخ محمد الفاضل ابن عاشور ص٨٩-١٠٥ ط. الدار التونسية للنشر .

(٣٥) الفهرست ص٤٣٧ ت : الدكتورة ناهد عباس عثمان ط دار قطري بن الفجاءة - الدوحة .

والمعروف أن المعتزلة هم الذين أثاروا مشكلة خلق القرآن وقد اشترك معهم في إثارة هذه المشكلة ، ومجادلة أهل الحديث فيها بعض فقهاء أهل الرأي كبشر المريسي (ت : ٢١٨هـ) ولأن أهل الحديث تعرضوا لكثير من الأذى من وراء القول بخلق القرآن ، فإن خصومتهم لم تكن مقصورة على المعتزلة وإنما شملت أهل الرأي جميعا متكلمين وفقهاء .

ولما تحول الموقف ضد المعتزلة في عهد المتوكل (ت٢٤٧هـ) إندفع أهل الحديث في النيل من خصومهم ، ولم يسلم من هذا أئمة أهل الرأي كأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد[٣٦] .

لقد اتهم هؤلاء الأئمة بمختلف التهم الشنيعة كالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ضعف الحديث أو الارجاء[٣٧] .

والحقيقة أن أئمة أهل الرأي أبعد عن تلك التهم ، ولم يكونوا في اجتهادهم عن السنة معرضين ولا لها مخالفين ، وما كانوا يأخذون بالرأي إلا إذا أعوزهم النص الذي يطمئنون إلى صحته ، بل إن النص الضعيف كان لديهم أولى من القياس ، وكذلك آثار الصحابة[٣٨] ، ولكن لأن المتكلمين حكموا آراءهم في قضايا العقيدة ، وشايعهم في هذا بعض فقهاء الرأي في القرن الثالث انعكست على الرأي بوجه عام ظلال قاتمة نفرت منه ، وشوهت صورته ، فوجهت إليه عبارات الذم والتنقص[٣٩] . فابن قتيبة في موقفه من أهل الرأي من الفقهاء كان يعبر عن موقف أهل الحديث من هؤلاء ، وبخاصة أنهم في القرن الثالث تمالأوا مع المعتزلة على أهل السنة ، وتحاملوا عليهم تحاملا ظاهرا ، ووجهوا بعض

---

(٣٦) انظر ، نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي للدكتور علي حسن عبد القادر ص٢٢٢ ط٣ القاهرة .

(٣٧) انظر ، أبو حنيفة للشيخ محمد أبو زهرة ص١٣٧ دار الفكر العربي - القاهرة .

(٣٨) انظر أعلام الموقعين لابن القيم جـ١ ص٧٧ مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة ، وليس المراد بالحديث الضعيف في إصطلاح السلف هو الضعيف في اصطلاح المتأخرين ، بل ما يسميه المتأخرون حسنا قد يسميه المتقدمون ضعيفا .

(٣٩) انظر مالك ترجمة محررة للشيخ أمين الخولي ص٦٥٠ ط. القاهرة .

الأحاديث توجيها غير سليم ، مما حدا بأهل الحديث وابن قتيبة لسانهم وخطيبهم من أن يهاجموا في عنف - بعد أن دلت دولة المتكلمين وأهل الرأي - خصومهم ، ويتهموهم بأشنع مما اتهمهم هؤلاء الخصوم به .

ويضاف إلى ذلك تأثر ابن قتيبة بشيخه ابن راهويه الذي كان كما قال عنه ابن قتيبة من الهج الناس يذكر قبائح أهل الرأي والتحذير منها .

فموقف ابن قتيبة إذن من أهل الرأي لا تثريب عليه فيه ؛ لأنه موقف حدد مساره طبيعة الصراع بين هؤلاء وأهل الحديث ، فضلا عن أن فقهاء الرأي في القرن الثالث لم يتبعوا سنن أئمتهم الذين عرفهم القرن الثاني ، فجلبوا على أنفسهم وعلى أئمتهم الطعن عليهم والزراية بهم .

هذا هو التحليل لموقف ابن قتيبة من أهل الرأي ، وهو موقف علمي كان حب الإسلام ونبيه من ورائه ، فالرجل بما كتب كان يتغيا نصرة الحق ، ودحض الباطل ، وما كان يريد الانتصار لنفسه أو لغيره ، وإنما هي الحمية الدينية التي فرضت عليه أن يقاوم تيارات الشك والاضطراب الفكري الذي كان من أوزار الثقافات الوافدة ، أو العلوم الدخيلة .

وأما جملة الأحاديث التي اشتمل عليها كتاب ابن قتيبة فتبلغ نحو ثلاثمائة حديث ، وقد تنوعت من حيث موضوعاتها ، وجهة التعارض كما يراها المتكلمون ومن سلك سبيلهم .

٢ - تقسيم الأحاديث من حيث الجهة التي توهم التعارض :

درس ابن قتيبة الأحاديث وفق تقسيم يقوم على أساس الجهة التي عول عليها القائلون بالتعارض ، دون نظر إلى ما جاءت به هذه الأحاديث من أحكام أو آداب ، ولكنه لم يورد كل ما يدخل تحت جهة واحدة معا ، فهو مثلا يدرس حديثا يعارض الكتاب ، ويذكر بعده حديثا يعارض القياس أو العقل ، ثم يعود فيذكر حديثا يعارض الكتاب ، وهكذا ، فلم يكن لابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث تبويب موضوعي ، أعني إفراد كل باب لطائفة من الأحاديث التي يجمع بينها

توهم التعـارض من جهـة واحدة ، ومع هذا جاءت عدة أحاديث في التشبيه متتابعة دون النص على الجهة التي قد يدخل منها الاختلاف عليها ، وإن كان مفهوما أنها تعارض ما يستحيل على الله تعالى من مشابهة الخلق .

وقد وردت أحاديث الكتاب ؛ طوعا لجهة التعارض على النحو التالي :

العدد	جهة التعارض
٤٣	أحاديث متناقضة .
١٩	أحاديث يكذبها النظر وحجة العقل .
١١	أحاديث في التشبيه .
١٠	أحاديث يكذبها الكتاب والنظر أو حجة العقل .
٠٧	أحاديث يكذبها الكتاب أو تخالفه .
٠٦	أحاديث تخالف الكتاب والاجماع .
٠٦	أحاديث يفسد أولها آخرها .
٠٢	أحاديث يكذبها العيان .
٠١	حديث يبطله القياس .
١	حديث تحتج به الرافضة .
١	حديث في القدر .
١	أحاديث تدل على خلق القرآن .

ويلاحظ أن ابن قتيبة كان يجمع أحيانا عدة أحاديث ويدرسها معا ، ففي الأحاديث المتناقضة كان يذكر مرة حديثين ، ومرة أخرى أكثر من حديثين مادام الموضوع واحدا ، ولذا كان هذا العدد ليس هو عدد الأحاديث ، وإنما هو عدد العنـاوين ، أو جهـة التعارض ، ومن ثم كان مجموع ما درسه ابن قتيبة نحو ثلاثمائة حديث .

وتغلب القضـايا الكـلامية على هذه الأحاديث ، وبخاصة ما يتصل منها

بالتشبيه ، فليس ما ورد من أحـاديث التشبيه في سياق بيان جهـة التنـاقض والاختلاف هو كل ما عرض لهذه المشكلة الكلامية ، وإنما هو بعض ما تحدث عنها ، وقد أفرد بالذكر ؛ لأنه يحمل عنوان التشبيه ، فكثير من الأحاديث التي قيل عنها بأنها متناقضة ، أو يدفعها الكتاب ، أو يكذبها النظر أو العيان تعرض للتشبيه وغيره من القضايا الكلامية .

وتـلي القضايا الكلامية في الكم القضايا الفقهية ، ووردت - على قلة - بعض الأحاديث في مسائل تاريخية أو آداب إسلامية .

كذلك يلاحظ أن جهة التعارض متعددة ، فقد تكون تعارضا مع الكتاب أو مع حديث آخر ، أو أن الحديث الواحد يناقض بعضه بعضا ، أو تعارضا مع القياس ، أو حجة العقل أو الاجماع ، بالاضافة إلى أحاديث التشبيه ، ونحوها مما يتذرع به الروافض والقدريون ، والقائلون بخلق القرآن .

وهذا يدل على أن ابن قتيبة حاول أن يستقصي صور التعارض والاختلاف ، وأن الـذين أثاروا تلك الشبهات كانوا يفتشون عن كل شبهة يمكن أن تكون حجة لهم فيما يدعون من اتهام أهل الحديث باضطراب النقل وتعطيل العقل ، ومن ثم التشكيك في صحة السنة ، وسلامتها من الاختلاف والتناقض .

منهج ابن قتيبة في نفي التعارض بين الأحاديث :

كان لابن قتيبة في كتابه منهج علمي في دراسة الأحاديث ونفي التعارض بينها ، وهذا المنهج ينهض على دعامتين أساسيتين :

الأولى : تقرير وجهة نظر من يذهب إلى التعارض بين الأحاديث في رفق وأمانة وموضوعية .

الثانية : المناقشة الهادئة التي تتوخى الرد المنطقي على القائلين بالتعارض ، وهـو في هذا يأخـذ بأصول المنهج العلمي في الاستقراء والتجربة والمشاهدة ، وتقريب المعنى بضرب الأمثال له .

وابن قتيبة في تفنيد دعاوي التعارض والاختلاف بين الأحاديث يهتم كل

الاهتمام بالجانب اللغوي ، فهو في نظره المدخل لإزالة كل لبس ، وتوضيح كل مبهم ، كما كان يستعين بالأدب شعرا ونثرا ، وأحيانا يسرف في هذا ، كذلك كان ينقل من التوراة والأنجيل في بعض الأحيان . وهو إلى هذا كان يستطرد فيتحدث في بعض المسائل الأصولية والفقهية والعلمية والتاريخية التي لها صلة بما يدرسه ، وإن لم يكن لها جدوى في خدمة القضية التي يتناولها .

وكان ابن قتيبة بعد أن يقرر وجهة نظر من يقول بالتعارض يستهل كلامه في الرد عليهم بأنه لا تعارض كما توهم القائلون به ، ثم يثبت نفي التعارض بمنهجه الذي أسلفت - آنفا - الإشارة إلى أهم ملامحه أو خصائصه .

ولم يطبق ابن قتيبة منهجه تطبيقا كاملا في كل حديث درسه ، وذلك لأن من الأحاديث ما لا يحتاج إلى الاستقراء والتجربة أو المشاهدة وكثرة النقول ، ومنها ما يقتضي الكلام عن كل ذلك أو بعضه ، ولذا تفاوت حديث ابن قتيبة فيما عرض له ، فقد أوجز القول في نحو عشرين بالمائة مما اشتمل عليه كتابه من الأحاديث ، ولم يتجاوز كلامه في كل حديث منها صفحة واحدة[٤٠] ، على حين جاء كلامه في معظم الأحاديث بعد ذلك في صفحة ونصف أو صفحتين ، وقليل منها تحدث عنه في ثلاث صفحات أو أكثر ، واستغرق الكلام في حديث «إن الميت يعذب ببكاء الحيّ عليه»[٤١] تسع صفحات ، وهذا أطول ما قيل في حديث واحد .

ومادام تطبيق المنهج بكل قسماته لم يتحقق في كل حديث ، فإنه لا يمكن أن نعرف هذا المنهج من دراسة حديث واحد وعدة أحاديث ، وإنما نقف عليه من دراسة كل أحاديث الكتاب .

ونفي التعارض أو الاختلاف بين الأحاديث ، أو بينها وبين الكتاب أو بالاجماع أو النظر كما بينه ابن قتيبة قد يكون مرده إلى اتفاق المعنى لا إلى اختلافه

---

(٤٠) ويرجع الإيجاز في دراسة بعض هذه الأحاديث إلى أن ابن قتيبة بينها في كتابه «غريب الحديث» بأكثر مما كتب عنها في التأويل ، ولكنه على حد قوله لم يجد بدا من ذكرها في هذا الكتاب ليكون جامعا للفن الذي قصدنا له (وانظر تأويل مختلف الحديث ص١٥٩ ، ١٩٩) .

(٤١) رواه البخاري وأحمد .

كما توهم المتكلمون أو غيرهم ، أو أن التعارض يرجع إلى حكم الضرورة ، أو أن لكل نص معنى ووقتا ، وموضعا ، فإذا وضع كل نص بموضعه زال الاختلاف ، أو إلى احتمال النسخ ، أو إلى سقوط بعض ألفاظ الحديث إما نسيانا ، أو عدم سماعه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو لعدم فهم المراد من النص ، أو الخطأ في تفسير اللفظ ، أو أن له عدة احتمالات فلماذا يحمل على معنى دون آخر ؟ أو أن له تأويلا ذهب على الذين قالوا بالتعارض .

وكان الترجيح بين الأحاديث من وسائل ابن قتيبة أحيانا في رد التناقض ، وهو ترجيح يخضع لمقاييس علمية تتعلق بالسند أو بالمتن .

ومن هذه الوجوه التي ردّ بها ابن قتيبة توهم التعارض بين الأحاديث أو بين بينها وبين القرآن والاجماع والقياس . . الخ . تظهر عقلية هذا الإمام ، تلك العقلية التي تفقه النصوص فقها سليما ، وتحيط بما تدل عليه من الحقيقة والمجاز ، وتضع كل نص في موضعه الصحيح ، فلا يختلط معناه بغيره ، ولا يلتبس مفهومه بمفهوم سواه ، إنه الأفق العقلي الواسع ، والنظر العلمي الدقيق ، والالمام بكل معارف العصر وثقافاته ، ولذا حق على الذين ذهبوا إلى غير ما ذهب إليه ابن قتيبة أنهم عرفوا شيئا ، وغابت عنهم أشياء على حد قوله[٤٢] .

ولا يتسع المقام لذكر كل ما درسه ابن قتيبة من الأحاديث ، وأجتزىء بإيراد بعض الأمثلة منها . .

« قالوا : حديثان متناقضان »

قالوا : رويتم عن عائشة أنها قالت : «ما بال رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما قط»[٤٣] .

ثم رويتم عن حذيفة «أنه بال قائما»[٤٤] وهذا خلاف ذاك .

قال أبو محمد : ونحن نقول : ليس ههنا بحمد الله اختلاف ، ولم يبل قائما

(٤٢ انظر تأويل مختلف الحديث ص١٢٣ .

(٤٣) رواه الترمذي .

(٤٤) رواه البخاري ومسلم .

قط في منزله ، والموضع الذي كانت تحضره فيه عائشة رضي الله عنه .

وبال قائما في المواضع التي لا يمكن أن يطمئن فيها ، إما للثق في الأرض وطين أو قذر .

وكذلك الموضع الذي رأى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة يبول قائما ، كان مزبلة لقوم ، فلم يمكنه القعود فيه ولا الطمأنينة .

وحكم الضرورة خلاف حكم الاختيار[٤٥] .

« قالوا : حديثان متناقضان »

قالوا : رويتم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «أيما إيهاب دبغ فقد طهر»[٤٦] .

وأنه مر بشاة ميتة فقالوا : «ألا انتفعوا بإهابها»[٤٧] فأخذ قوم من الفقهاء بذلك وأفتوا به .

ثم رويتم أنه قال : «لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب»[٤٨] فأخذ قوم من الفقهاء بهذا ، وأفتوا به .

وهذا تناقض واختلاف .

قال أبو محمد ونحن نقول : إنه ليس ههنا بحمد الله تناقض ولا اختلاف ؛ لأن الإهاب في اللغة : الجلد الذي لم يدبغ ، فإذا دبغ ، زال عنه هذا الاسم .

وفي الحديث أن عمر رضي الله دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت أهب عَطِنة ، يريد : جلود منتنة لم تدبغ .

وقالت عائشة رضي الله عنها في أبيها رضي الله عنه : «قرر الرءوس على كواهلها ، وحقن الدماء في أهبها» يعني في الأجساد . فكَنَتْ عن الجسد بالإهاب ولو كان الإهاب مدبوغا لم يجز أن تكنى به عن الجسد .

---

(٤٥) تأويل مختلف الحديث ص٨٧ .

(٤٦) رواه النسائي ، وابن ماجه ، والترمذي .

(٤٧) رواه البخاري ومسلم .

(٤٨) رواه أحمد وأبو داود .

وقال النابغة الجعدي يذكر بقرة وحشية أكل الذئب ولدها وهي غائبة عنه ، ثم أتته .

فَلا قَتْ بَيَاناً عِنْد أوَّلِ مَعْهدٍ إهَاباً ومعْبُوطاً من الجَوفْ أحْمرا[٤٩]

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : »أيما إهاب دبغ فقد طهر» ، ثم مر بشاه ميتة فقال : « ألا انتفعوا بإهابها» يريد ألا دبغوه ، فانتفعوا به . ثم كتب : «لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب» يريد لا تنتفعوا به وهو إهاب حتى يدبغ . ويدل ذلك على قوله : «ولا عصب» ؛ لأن العصب لا يقبل الدباغ ، فقرنه بالإهاب قبل أن يدبغ ، وقد جاء هذا مبينا في الحديث .

روى ابن عيينة عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بشاة لمولاة لميمونة ، فقال : «ألا أخذ إهابها فدبغوه ، وانتفعوا به»[٥٠] .

« قالوا : حديث في التشبيه »

قالوا : رويتم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر»[٥١] فوافقتم في هذه الرواية الدهرية[٥٢] .

قال أبو محمد : ونحن نقول : إن العرب في الجاهلية كانت تقول : أصابني الدهر في مالي بكذا ، ونالتني قوارع الدهر وبوائقه ومصايبه .

ويقول الهَرِم : «حناني الدهر» فينسبون كل شيء تجري به أقدار الله عز وجل عليهم من موت أو سقم ، أو ثكل أو هرم إلى الدهر .

ويقولون : لعن الله هذا الدهر ، ويسمونه المنون ؛ لأنه جالب المنون عليهم عندهم ، والمنون : المنية قال أبو ذؤيب . .

---

(٤٩) ورد البيت في الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ١ ص١٥٢ تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر .

(٥٠) تأويل مختلف الحديث ص١٦٣ .

(٥١) رواه مسلم في باب الأدب .

(٥٢) الدهرية : هم الذين ينكرون الخالق والبعث والإعادة ، وقالوا بالطبع المحيى والدهر المفني (وانظر الملل والنحلل للشهرستهاني جـ٢ ص٢٣٥ تحقيق سيد كيلاني) .

أَمِنَ المنون ورَيْبه تَتَوجّعُ   والدهر ليس بِمُعْتِب مَنْ يَجْزَعُ[٥٣]

قال أبو محمد : هكذا أنشدنيه الرياشي عن الأصمعي ، عن ابن أبي طرفة الهذلي ، عن أبي ذويب .

والناس يروونه «وريبها تتوجع» ويجعلون المنون المنية ، وهذا غلط ، ويدلك على ذلك قوله : والدهر ليس بمعتب من يجزع ، كأنه قال :

أمن الدهر وريبه تتوجع   والدهر ليس بمعتب من يجزع

وقال الله عز وجل : «نتربص به ريب المنون»[٥٤] ، أي ريب الدهر وحوادثه ، وكانت العرب تقول : لا ألقاك آخر المنون ، أي آخر الدهر .

وقد حكى الله عز وجل عن أهل الجاهلية ما كانوا عليه من نسب أقدار الله عز وجل وأفعاله إلى الدهر ، فقال : «وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون»[٥٥] .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تسبوا الدهر إذا أصابتكم المصايب ، ولا تنسبوها إليه فإن الله عز وجل هو الذي أصابكم بذلك لا الدهر ، فإذا سببتم الفاعل ، وقع السب بالله عز وجل .

ألا ترى أن الرجل منهم إذا أصابته نائبة ، أو جائحة في مال ، أو ولد أو بدن فسب فاعل ذلك به ، وهو ينوي الدهر ، أن المسبوب هو الله عز وجل .

وسأمثل لهذا الكلام مثالا أقرب به عليك ما تأولت ، وإن كان - بحمد الله تعالى قريبا - كأن رجلاً يسمى «زيدا» أمر عبدا له يسمى «فتحا» أن يقتل رجلا فقتله ، فسب الناس فتحا ولعنوه .

فقال لهم قائل : لا تسبوا فتحا ، فإن زيدا هو فتح ، يريد أن زيدا هو القاتل ؛ لأنه هو الذي أمره ، كأنه قال : إن القاتل زيد ، لا فتح .

وكذلك الدهر تكون فيه المصائب والنوازل ، وهي بأقدار الله عز وجل ،

---

(٥٣) ورد البيت في ديوان الهذليين جـ١ ص١ ط . دار الكتب المصرية «وريبها تتوجع» .

(٥٤) الآية : ٣٠ من سورة الطور .

(٥٥) الآية : ٢٤ من سورة الجاثية .

فيسب الناس الدهر ؛ لكون تلك المصايب والنوازل فيه وليس له صنع . فيقول قائل «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»[٥٦] .

« قالوا : حديث يكذبه النظر »

قالوا : رويتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إكْلَفوا من العمل ما تطيقون فإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا»[٥٧] فجعلتم الله تعالى يمل إذا ملوا والله تعالى لا يمل على كل حال ، ولا يكل .

قال أبو محمد : ونحن نقول : لو كان على ما ذهبوا إليه كان عظيما من الخطأ فاحشا . ولكنه أراد فإن الله سبحانه لا يمل إذا مللتم ، ومثال ذلك قولك في الكلام : «هذا الفرس لا يفتر ، حتى تفتر الخيل» .

لا تريد بذلك أنه يفتر إذا فترت ، ولو كان هذا هو المراد ، ما كان له فضل عليها ؛ لأنه يفتر معها ، فأية فضيلة له ؟ وإنما تريد أنه لا يفتر إذا فترت .

وكذلك تقول في الرجل البليغ في كلامه والمكثار الغزير «فلان لا ينقطع حتى تنقطع خصومه» .

تريد أنه لا ينقطع إذا انقطعوا ، ولو أردت أنه ينقطع إذا انقطعوا لم يكن له في هذا القول فضل على غيره ، ولا وجبت له به مدحة ، وقد جاء مثل هذا بعينه في الشعر المنسوب إلى ابن أخت «تأبط شرا» وقال : إنه لخلف الأحمر .

صَلِيَتْ مني هُذَيْلُ بِخرْقٍ لا يَمَلُّ الشَّرُّ حتَّى تملوا[٥٨]

لم يرد أنـه يمل الشر إذا ملوه ، ولو أراد ذلك ما كان فيه مدح له ؛ لأنه بمنزلتهم ، وإنما أراد أنهم يملون الشر ، وهو لا يمله[٥٩] .

ويؤخـذ من هذه النماذج الأربعة أن ابن قتيبة يولي الجانب اللغوي عناية خاصة ، وأنه يحاول استقراء دلالة الألفاظ بإيراد النصوص التي تعبر عنها ، ثم

---

(٥٦) تأويل مختلف الحديث ص٢٠٧ .

(٥٧) أخرجه البخاري ومسلم .

(٥٨)

(٥٩) تأويل مختلف الحديث ص٣٢٤ .

يربط بين هذه الدلالة وتأويله للحديث ، ولذلك كان يكثر من قوله ردا على خصومه ، وهذا التأويل لا يجوز عند من يعرف اللغة ومخارج كلام العرب[٦٠] أو نحو هذا .

كذلك يؤخذ من تلك النماذج اهتمام ابن قتيبة بضرب الأمثلة ؛ تقريبا للمعنى أو توضيحا له ، حتى يسلم الخصم بما انتهى إليه .

وأما بقية خصائص المنهج فهي مبثوثة في تضاعيف الكتاب ، فالتجربة والمشاهدة جاء الحديث عنها أكثر من مرة ، ومن ذلك ما أسلفت الإشارة إليه من أنه رأى بخراسان طبيبا من الترك يعالج بالكي ؛ ومنها ما جاء تعليقا على دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر : «اللهم اشدد وطأتك على مضر ، وابعث عليهم سنين كسني يوسف»[٦١] . وأن الجدب والقحط نال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قال : «وقد رأينا بعيوننا ما أغنى عن الأخبار ، فكم من بلد فيه الصالحون والأبرار والأطفال والصغار ، أصابته الرجفة ، فهلك به البر والفاجر والمسيء والمحسن ، والطفل والكبير»[٦٢] .

ولأن ابن قتيبة قرأ التوراة والانجيل فقد أفاد منهما في كتبه ومنها تأويل مختلف الحديث ، وقد انعكس ذلك على منهجه في هذا الكتاب ، فقد كان يدعم ما يذهب إليه بما[٦٣] ينقله منهما ، وكان حين ينقل يعبر أحيانا بقوله : وقرأت في التوراة أو الانجيل ، وكان أحيانا يكتفي بالاشارة إلى أن الأمر موجود فيهما .

وقد وصف الانجيل الذي رجع إليه بالانجيل الصحيح دون أن يصف التوراة بهذا مع أنها لا تختلف عنه من حيث التبديل والتحريف والتغيير ، ولكن وصفه الانجيل بالصحة يوحي بأنه كان على دراية بنسخ هذا الكتاب المقدس ، وأن بعضها محرف ، وبعضها الآخر صحيح ، وإن لم يعلل لوجه الصحة فيما نقل منه أو قرأ فيه .

---

(٦٠) تأويل مختلف الحديث ص١٥٦ .

(٦١) رواه البخاري .

(٦٢) تأويل مختلف الحديث ص٢٣٣ .

(٦٣) انظر المصدر السابق ص١٣٠ ، ١٣٩ ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢٦٢ ، ٢٩٩ .

وخلاصة القول أن منهج ابن قتيبة في كتابه منهج علمي يستقرىء الدلالة اللغوية من الشواهد القرآنية والحديثية والأدبية ، ولا يغفل التجربة والمشاهدة وبعض اللمحات التاريخية ، ويحاول أن يحرر موضع النزاع في قصد ، ويرد على من يناقشهم في موضوعية ، فهو منهج يعتمد على النقل والعقل ويتوخى في اعتدال الدفاع عن السنة ، وبيان أنها لا تعرف الاختلاف أو التناقض .

٤ - بين ابن قتيبة ومن ألفوا في مختلف الحديث :

صنف في مختلف الحديث عدد من العلماء ، وتنوعت عناوين المصنفات في هذا العلم ، كما تفاوتت هذه المصنفات من حيث إفرادها لمختلف الحديث ، أو عدم إفرادها له .

وجاء في تدريب[٦٤] الراوي أن أول من صنف في مختلف الحديث هو الإمام الشافعي (ت : ٢٠٤هـ) وأنه لم يقصد استيفاء الكلام فيه ، كما أنه لم يقصد إفراده بالتأليف ، وإنما ذكر جملة منه في كتاب الأم وهذا غير مسلم على اطلاقه ، فالشافعي عرض لمختلف الحديث في الرسالة[٦٥] وفي بعض أبواب الأم ، وأفراده بالتأليف في كتابه «اختلاف الحديث» ولكتاب اختلاف الحديث خطبة طويلة تحدث فيها الشافعي عن خبر الواحد وأن قبوله - مادام الواحد صادقا عند من أخبره - هو المذهب الصحيح ، ثم تحدث عن القرآن ، وما ورد فيه من خاص وعام ، وتناول قضية النسخ في إيجاز ، ثم أشار إلى الذين يردون الأحاديث ، أخذا بظاهر النص القرآني ، وأنهم ليسوا على صواب في هذا .

وهو في بعض ما تحدث عنه يسوق الكلام في صورة حوار بينه وبين غيره ، وهو أسلوب كان الشافعي يأخذ به فيما كتب .

وعقد بعد هذه الخطبة ثمانين بابا ، كلها في مسائل فقهية ، وكان يذكر في كل باب ما أثر فيه من أحاديث ، ثم يعلق عليها مرجحا ، أو جامعا بينها ، أو قاضيا بالنسخ ، وفقا لأصول وقواعد علمية .

---

(٦٤) انظر تدريب الراوي جـ٢ ص٩٦ .

(٦٥) انظر الرسالة تحقيق الشيخ شاكر فقرة : ٥٧٤ - ٥٩٠ ، ٧١٠ - ٩٢٥ .

وكان في بعض الأبواب يومىء إلى ما قد يوهم الاختلاف بين الأحاديث ، ومن هذا أن الراوي قد يأتي بأول الحديث دون آخره ، أو يؤدي بعضه دون بعض .

والشافعي في كتابه إمام في الفقه والأصول والحديث ، لم يتعرض لقضية كلامية ولكنه كان يناقش من يسأل عما في السنن من أوجه الاختلاف دون أن يفصح عن اسمه أو مذهبه ، ولعله بهذا كان يرد على تيار عام بدأ في عصره يثير حول السنة ما يطعن في صحتها ، ولهذا وصف الشافعي بأنه ناصر السنة وأول واضع لعلم الأصول .

وقال السيوطي : ثم صنف فيه ابن قتيبة (أي في مختلف الحديث) فأتى فيه بأشياء حسنة وأشياء غير حسنة قصر فيه باعه ، لكون غيرها أولى وأقوى منها ، وترك معظم المختلف .

وحكم السيوطي على كتاب ابن قتيبة حكم غير مفسر ، أي غير مصحوب بدليله ، أو بالبراهين والحقائق التي تثبت صحته ، فلا يمكن الأخذ به على علاته ، وسأعرض لهذا الرأي في الحديث عن القيمة العلمية لهذا الكتاب .

ثم قال السيوطي : ثم صنف ذلك ابن جرير والطحاوي كتابه مشكل الآثار ، وكان ابن خزيمة من أحسن الناس كلاما فيه .

أما ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) فكتابه في هذا عنوانه «تهذيب الآثار» وهو كتاب مؤلف على طريقة المسانيد ، وذكر فيه قضايا فقهية وكلامية ، وكان منهجه أنه تكلم عن كل حديث بعلله وطرقه ، وما فيه من الفقه والسنن واختلاف العلماء وحججهم ، وما فيه من المعاني والغريب ثم يتبع هذا بصواب القول عنده ، أي بمذهبه في المسألة .

وكان في بعض الأحيان إذا درس حديثا يوهم ظاهره التعارض مع غيره يبين أنه لا تعارض بينهما كما جاء في تعليقه على أحاديث نفي العدوي والطيرة وألا يورد ممرض على مصح[٦٦] .

---

(٦٦) انظر «تهذيب الآثار» مسند علي بن أبي طالب ص٣٣ تحقيق الاستاذ محمود محمد شاكر ط. جامعة الامام محمد بن سعود .

ويذهب الطبري إلى أن الأحاديث إذا صحت مخارجها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بينها تعارض دون أن يكون هناك بيان للنسخ فإن هذا التعارض ظاهري ، أو لا يجوز القول به ، لأن لكل حديث في هذه الحالة معناه الذي لا ينافي معنى الآخر ، أو أن هناك قرائن تمنع التعارض في الدلالة[٦٧] .

وللإمام الحافظ أبي جعفر الطحاوي (ت: ٣٢١هـ) كتابان ، وليس كتابا واحدا كما ذكر السيوطي ، فله «شرح معاني الآثار» وقد قال في مقدمته : سألني بعض أصحابنا من أهل العلم أن أضع له كتابا أذكر فيه الآثار المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأحكام التي يتوهم أهل الإلحاد والضعفة من أهل الإسلام أن بعضها ينقض بعضا ، لقلة علمهم بناسخها من منسوخها ، وما يجب به العمل منها ، لما يشهد له من الكتاب الناطق والسنة المجتمع عليها ، وأجعل لذلك أبوابا أذكر في كل كتاب منها ما فيه من الناسخ والمنسوخ ، وتأويل العلماء واحتجاج بعضهم على بعض ، وإقامة الحجة لمن صح عندي قوله منهم بما يصح به مثله من كتاب أو سنة أو اجماع أو تواتر من أقاويل الصحابة أو تابعيهم[٦٨] .

فمعاني الآثار موسوعة في فقه الحديث المقارن ، ويتناول فيه الإمام الطحاوي إلى جانب الدراسة الفقهية العلاقة بين الأحاديث التي يتوهم التعارض بينها ، ويرد على الذي لا علم لهم بناسخ الحديث من منسوخه ، ولا علم لهم أيضا بوجوه الترجيح بين الآثار ، ويقولون بأن بعضها ينقض بعضا .

وأما كتاب مشكل الآثار فقد ألفه الطحاوي بعد المعاني ، وقد أشار في مقدمته[٦٩] إلى أنه وجد في الآثار الصحيحة أشياء مما سقطت معرفتها والعلم بما فيها عن أكثر الناس فمال قلبه إلى تأملها ، وتبيان ما قدر عليها من مشكلها ، ومن استخراج الأحكام التي فيها ، ومن نفي الاحالات عنها . وقد جعل ذلك أبوابا وذكر في كل باب ما وفقه الله إليه من تلك الآثار .

---

(٦٧) المصدر السابق مسند أبي عباس .

(٦٨) شرح معاني الآثار جـ١ ص١٢ تحقيق محمد زهري النجار ط. دار الكتب العلمية - بيروت .

(٦٩) انظر مشكل الآثار المجلد الأول ص٣ .

فالغاية من تأليف مشكل الآثار هي توضيح ما خفي على العامة من المعاني التي لا يقفون عليها ، والتي يؤدي الجهل بها إلى الحكم بالتناقض بين الآثار ، مع أنه لا تناقض بينها .

ويعرض هذا الكتاب للآثار أيا كان موضوعها مادامت في نظر الإمام الطحاوي من المشكل الذي يحتاج إلى بيان ، ومن ثم لم يكن كالمعاني خالصا للأحكام الفقهية ، وإنما يضم إلى جانب بعض هذه الأحكام كثيرا من القضايا الكلامية ، والآداب الإسلامية .

وابن خزيمة الذي عده السيوطي من أحسن الناس كلاما في مختلف الحديث هو محمد بن اسحاق بن خزيمة ، إمام نيسابور في عصره ، كان فقيها مجتهدا عالما بالحديث ، وتوفي سنة ٣١١هـ ، فهو معاصر للطبري والطحاوي ، ولم أقف على ما كتبه ابن خزيمة حتى أستطيع أن أتبين مدى صحة ما قاله السيوطي عنه .

ولم يذكر السيوطي علماء آخرين كتبوا في هذا الموضوع منهم أبو الفرج بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) وهو فقيه-محدث وأديب مؤرخ ، وقد تأثر بابن قتيبة ونقل عنه فيما كتب في مختلف الحديث(٧٠) ، ومما يروى عن ابن الجوزي ويدل على إطلاعه على السنة وفقهه لها قوله : لا أعرف حديثين متضادين فمن كان عنده فليأتني به أؤلف بينهما(٧١) .

ولابن الجوزي في موضوع مختلف الحديث كتابان ، هما : «التحقيق في أحاديث الاختلاف» و «دفع شبه التشبيه» ولم يتح لي الاطلاع عليهما .

وللسيوطي نفسه كتاب عنوانه «تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه»(٧٢) ، وهو كتاب صغير تناول فيه طائفة من الأحاديث التي يوهم ظاهرها تشبيه الله بخلقه ، والسيوطي في كتابه يأخذ بمذهب الخلف الذين يعتقدون تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه ، ولكنهم لا يأخذون بمذهب السلف في تفويض علم ظاهر اللفظ

---

(٧٠) انظر تأويل مختلف الحديث ص٩ .

(٧١) انظر الحديث والمحدثون للشيخ محمد محمد أبو زهو ص٤٧٢ ط. القاهرة .

(٧٢) حقق الكتاب عن نسخة خطية وحيدة الأستاذ البسيوني مصطفى الكومي ، ونشرته دار الشروق بجدة ، وظهرت الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

إلى الله ، وإنما يؤولون اللفظ المتشابه بمعنى ليس من المستحيل إطلاقه على الله تعالى .

وكان السيوطي يذكر مع الأحاديث بعض الآيات المتشابهات .

ومن العلماء الـذين لم يذكرهم السيوطي الإمام الحافظ أبو بكر بن فورك المتـوفي سنة ٤٠٦هـ ، فله كتاب عن مشكل الحديث وبيانه ، وقد قصره على الأحاديث الموهمة للتشبيه ، وتأثر فيها كتب بابن قتيبة ، فأحاديث التشبيه التي وردت في تأويل مختلف الحديث وعرض لها ابن فورك في كتابه نقل كل ما قاله ابن قتيبة فيها وإن لم يصرح بهذا[٧٣] .

كما أن ابن فورك اتبع قتيبة من حيث الباعث الذي حمله على تصنيف مشكل الحديث ، فقد قال في أول فصل من كتابه : أما بعد ، فقد وفقت أسعدكم الله بمطلوبكم ، ووفقنا الاتمام بما ابتدأنا به على تحري النصح والصواب إلى إملاء كتـاب نذكر فيه ما اشتهر من الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما يوهم ظاهره التشبيه ، مما يتسلق به الملحدون على الطعن في الدين ، وخصـوا بتقبيح ذلـك ، الـطائفة التي هي الظاهرة بالحق لسانا وبيانا ، وقهرا وعلوا ، وامكـانـا ، الـطاهرة عقائدها من شوائب الأباطيل ، وشوائب البدع والأهواء الفاسدة ، وهي المعروفة بأنها أصحاب الحديث .

أما هؤلاء المبتدعة الذين يتسلقون بتلك الأحاديث للطعن في الدين فقد ذكر منهم الجهمية والمعتزلة والخوارج والرافضة والجسمية[٧٤] .

وجاء في آخر كتاب ابن فورك : كمل بيان ما أشكل ظاهره من صحيح

---

(٧٣) انـظر «مشكل الحديث وبيانه» تحقيق موسى محمد علي ص٢٩١ ، ٢٩٩ ، وتأويل مختلف الحديث ص٣٢٤ ، ٢٤٧ .

(٧٤) انظر مشكل الحديث وبيانه ص ٣٢ ، ٣٣ ، والجهمية أصحاب جهم بن صفوان ، وهو من الجبرية الخالصة ويوافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية ، والخوارج يراد بهم من خرج على الإمـام علي بعد حرب صفين ، والرافضة الشيعة الذين رفضوا إمامة زيد ثم اطلقت على الشيعة عموما ، ولا يقولون إلا بإمامة علي رضي الله عنه . أما الجسمية فهم جماعة من الشيعة الغالية .

الحديث مما أوهم التشبيه ، ولبَّس بذلك المجسمون ، وازدراه الملحدون ، وطعن في روايته المبتدعون ، وإيضاح ما خفي باطنه مما أغفله الجاهلون وأنكره المعطلون ، وشرح ذلك وتنزيله على ما يليق بوصف الله تعالى بالدلائل التي لا شك فيها ، وموافقة السنة المعمول بها واللغة المجتمع عليها[٧٥] .

ولكن ابن فورك لم يأخذ بمنهج ابن قتيبة من حيث البدء بتقرير وجهة نظر من يقول بالتعارض ، وبيان جهة التعارض ، وإنما كان يذكر الحديث تحت عنوان «ذكر خبر وتأويله» أو ذكر خبر آخر وتأيله ومعناه ، أو ذكر خبر آخر وبيان تأويله ، أو ذكر خبر آخر يقتضي التأويل ، أو نحو هذا من العناوين ، ثم يفسر ألفاظ الحديث ، وقد يستعين في تأويله بنصوص لغوية وأدبية ، وينتهي من بيان معنى الحديث وتأويله إلى نفي مدلوله بتشبيه الله بخلقه .

هذا عرض موجز لأهم ما ألف في مختلف أو مشكل الحديث قبل ابن قتيبة وبعده ، ويتضح منه أن كل ما كتب في هذا الموضوع كان يتغيا هدفا واحدا ، وهو التأكيد على الالتئام بين الأحاديث ، وعدم التضاد أو الاختلاف بينها ؛ دفاعا عن السنة ، وردا على ما أثير حولها من شبهات ، بالاضافة إلى توضيح المشكل فيها لمن خفي عليه معناها ، وإن تباينت مناهج هذه المؤلفات بعض التباين ، واختلفت من حيث عدد الأحاديث وموضوعاتها ، وإن كان هناك قدر مشترك بينها ، وبخاصة بين الكتب التي اهتمت بما يوهم التشبيه من الآثار .

وكذلك يتضح أن ابن قتيبة انفرد بمنهج خاص تمثل في تحديد من يرد عليهم ، وتقرير وجهة نظرهم ، ثم مناقشتهم فيما يذهبون إليه ، مع عنايته في هذا بالدراسة اللغوية ، والاستعانة بالشواهد الأدبية ، والنقل من التوراة والانجيل ، وقد انعكس هذا المنهج على ما اشتمل عليه كتابه من آراء وقضايا علمية مختلفة .

أما ما كتبه الشافعي والطبري والطحاوي والسيوطي ، فليس فيه بيان عن طائفة معينة يوجه الكلام إليها ، وكل ما يؤخذ مما كتبه هؤلاء الأئمة أن هناك من

(٧٥) المصدر السابق ص٥٢٥ .

يدعي التعارض ، أو تخفى عليه حقائق المعاني أو تضطرب في نظره مفاهيم المشكل من الآثار ، ثم هم في مناهجهم لا يعولون على اللغة ، اللهم إلا الطبري ، وإن جاء حديثه عن مختلف الحديث محدودا .

وأما ابن فورك فقد التقى مع ابن قتيبة في تحديد من يرد عليهم في كتابه وإن لم يتحدث عنهم كما تحدث ابن قتيبة ، كما أنه نقل من تأويل مختلف الحديث كثيرا ، ولذلك تشابه منهج ابن فورك بعض التشابه مع منهج ابن قتيبة في النقاش والجدل .

وقد أخذ ابن فورك على ابن قتيبة أنه سلك طريق الخطأ ، وحاد عن وجه الصواب في تأويل بعض الأخبار الموهمة للتشبيه ، وسأعرض لهذا في الفقرة التالية .

٥ - القيمة العلمية لكتاب تأويل مختلف الحديث :

تتحدد القيمة العلمية لأي مؤلف بأهمية الموضوع الذي يتحدث عنه ، ومبلغ دقته في دراسة كل أبعاد هذا الموضوع وجزئياته ، وذلك في أسلوب لا يعرف التكلف ، ويكون ملائما لطبيعة القضايا التي يعبر عنها .

وكتاب تأويل مختلف الحديث تناول موضوعا مهما يتعلق بالمصدر الثاني للتشريع الإسلامي من حيث دفع شبهات التناقض والاختلاف فيه ، وهو أمر له خطورته ؛ لأنه يتصل بمبدأ صحة هذا المصدر من جهة ، وبما يقرره من أحكام من جهة أخرى .

وكان الأمر أشد خطرا في عصر ابن قتيبة ، لأنه العصر الذي اشتد فيه الصراع بين الفكر الإسلامي في صفائه ونقائه والأفكار الوافدة بما تحمله من أوشاب الحضارات الوثنية ، وكان الحديث عن السنة وسلامتها من الاختلاف على رأس مجالات ذلك الصراع ، فابن قتيبة كان يخوض معركة ضارية لحماية السنة من أعدائها ، وتوضيح ما خفي من المتشابه منها .

إن كتاب تأويل مختلف الحديث له قيمة علمية متميزة ؛ لأنه واجه في صراحة

ومـوضـوعية أولئـك الذين وقفوا من الحديث ورجاله موقفا متحاملا ، يتلمس الشبهات ، وينقب عن الهفوات ، ومن ثم اتسم هذا الكتاب بسمة الدفاع عن السنة ضد خصومها ، على حين أن ما كتبه الشافعي والطبري والطحاوي كان لونا من البيان والتفسير لمن التبس عليه فقه الأحاديث .

وإذا كان البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة الصحاح قد خدموا السنة خدمة جليلة بما قاموا به من جهد فائق في تدوين ما صح من السنة فإن ابن قتيبة خدم السنـة خدمـة لا تقل في أهميتها عما قام به هؤلاء الأئمة ، إذ دفع عنها مزاعم خصومها ، وفند ما ذهبوا إليه بالحجة الدامغة ، والأدلة النقلية والعقلية معا .

وقد ذكرت من قبل أن منهج ابن قتيبة في تفنيد دعاوي التناقض في السنة انعكس على كتابه وما اشتمل عليه من آراء ، وأن هذا الكتاب يقدم بوجه عام كل ألوان المعرفة التي ألم بها هذا الإمام .

إن اهتمام ابن قتيبة بالجانب اللغوي في الرد على تلك الدعاوي أضفى على كتابه طابعا لغويا وأدبيا من حيث الأسلوب وكثرة النقول من النثر والشعر ، كما أن إطلاعه على كل ثقافات عصره كان من أسباب تعويله على بعض ما أثر عن الفرس والترك وغيرهما من العلوم والآراء ، وكذلك نقله من التوراة والانجيل ، وظهر هذا في صورة إشارات لدراسات نفسية أو تاريخية أو علمية أو فلسفية كانت تذكر استطرادا أو لأدنى مناسبة ، أو للتأكيد على ما يراه .

واشتمل الكتاب مع هذا على آراء لابن قتيبة في القراءات والتفسير والفقه والأصـول ، وهي تشهد له بإمامته في هذه العلوم ، وأن كتابه يعبر عن ثقافته الواسعة أصدق تعبير .

ومما يتصل ببيان القيمة العلمية لتأويل مختلف الحديث الإشارة إلى ما صدر عن بعض العلماء من آراء في هذا الكتاب ومؤلفه .

وهذه الآراء تعرض للمسائل التالية :

أولاً : ابن قتيبة والأحاديث الموضوعة .

ثانيا : رأي ابن فورك في تأويل ابن قتيبة للأحاديث الموهمة للتشبيه .

ثالثا : رأي السيوطي في ابن قتيبة وكتابه .

لقد اتهم ابن قتيبة بالكذب ، ورواية بعض الأحاديث غير المعقولة لا من خصومه فحسب ، وإنما أيضا من بعض علماء الحديث كالحاكم وابن حجر[٧٦] .

وهذا غير مسلم لأن الرجل كان على دراية دقيقة بدوافع الاختلاق في السنة ، ولعله أول من بين هذه الدوافع ، وفصل القول فيها في كتابه تأويل مختلف الحديث ، فقد تحدث في معرض دراسته لبعض الأحاديث الموضوعة أو الواهية عن أسباب الوضع فقال :

والحديث يدخله الشوب والفساد من وجوه ثلاثة :

منها : الزنادقة واجتيالهم للإسلام وتهجينه بدس الأحاديث المستشنعة والمستحيلة كالأحاديث التي قدمنا ذكرها .

والوجه الثاني : القصاص على قديم الأيام ، فإنهم يميلون وجوه العوام إليهم ويستدرون ما عندهم بالمناكير والغريب والأكاذيب من الأحاديث .

وأما الوجه الثالث الذي يقع فيه فساد الحديث فأخبار متقادمة كان الناس في الجاهلية يروونها تشبه أحاديث الخرافة .

وقد ساق من باب التمثيل - على كل وجه من هذه الوجوه بعض الأحاديث المكذوبة[٧٧] .

ويضاف إلى هذه الوجوه الثلاثة وجه رابع ، ورد الكلام عنه مفرقا في الحديث عن أصحاب الكلام وأهل البدع والأهواء ، وهو : أعداء أهل الحديث ، فقد دسوا أحاديث مختلقة ليحطوا من قدر المحدثين ، وليصوروهم أمام الناس بأنهم ذو عقول تافهة لا يجوز لأحد أن يأخذ بشرعتهم ، أو يؤمن بآرائهم .

فمن كان على معرفة بأسباب إختلاق الأحاديث لابد أن يكون على دراية بالأحاديث الموضوعة ؛ لأن معرفة تلك الأسباب فرع عن الوقوف على هذه الأحاديث ، فكيف يتهم بالكذب ورواية غير الصحيح .

---

(٧٦) انظر ابن قتيبة للدكتور الجندي ص٢٥٧ .

(٧٧) انظر تأويل مختلف الحديث ص٢٥٩ - ٢٦٥ .

ولأن ابن قتيبة كان على معرفة بأسباب الوضع ، ومعرفة بالأحاديث الموضوعة رفض في كتابه كثيرا من السنن مبينا علة رفضه لها .

وإذا كان في بعض الأحيان يذكر حديثا ليس صحيحا فإنما ذكره لأن هناك من أوّله واحتج به ، وهو في هذا ينبه على ذلك[٧٨] .

وابن قتيبة من خلال كتابه إمام في الحديث رواية ودراية ، فهو من حيث الرواية يلم بمتون الأحاديث إلماما وافيا ، ويعرف الرواة معرفة دقيقة ، ومن ثم يفاضل بينهم في قبول الأحاديث .

أما من حيث الدراية فتتحدث عنه آراؤه في رد شبهة التعارض ، وتأكيد أن السنة لا اختلاف فيها .

إن من درس السنة هذه الدراسة ، وعرف أعداءها تلك المعرفة لا يكون موضع تهمة فيما يرويه فهو ثقة صادق ، هكذا كان ابن قتيبة كما أطبقت كلمة سواد المؤرخين ، ولا سيما من كان منهم قريب العهد بعصره كابن النديم . على أن ابن قتيبة ليس بدعا من العلماء ، وهؤلاء لا يسلمون من الخطأ ، فإذا كان في بعض كتبه قد روي ما ليس صحيحا[٧٩] دون أن ينبه عليه ، أو ظنه صحيحا وهو ليس كذلك ، فإن بعض أئمة الصحاح وقع في هذا ، بيد أن ذلك لا يطعن في صدقهم وأمانتهم وإمامتهم .

أما ابن فورك فقد اتهم ابن قتيبة بأنه لم يصب القول في تأويل ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن الله خلق آدم على صورته»[٨٠] ونسب إليه هذه العبارة : إن الله عز وجل صورة كالصور كما أنه شيء لا كالأشياء[٨١] . وعقب عليها بقوله : فأثبت لله تعالى صورة قديمة زعم أنها لا

---

(٧٨) المصدر السابق ص٢٠٣ .

(٧٩) انظر ابن قتيبة للدكتور الجندي ص٢٥٣ .

(٨٠) رواه البخاري ومسلم .

(٨١) مشكل الحديث وبيانه لابن فورك ص٦٧ .

كالصور ، وأن الله خلق آدم على تلك الصورة ، وهذا جهل من قائله ، وتوغل في تشبيه الله تعالى بخلقه[٨٢] .

وما نسبه ابن فورك لابن قتيبة ليس موجودا بنصه في تأويل مختلف الحديث وإن كان ما جاء به في هذا الكتاب يدل عليه ، ولكن ما ذكره هذا الإمام في كل أحاديث التشبيه لا يدل إلا على التنزيه المطلق ، وعدم التشبيه بحال ، ومصدر الشبهة لدى ابن فورك وغيره كابن الجوزي أن ابن قتيبة يحمل الألفاظ على ظاهرها ، ولا يتأولها بمعنى ليس من المستحيل اطلاقه على الله تعالى . أنه يأخذ بالنص على ظاهره مع التفويض الكلي في العلم به إلى الله تعالى ونفي المماثلة بينه وبين خلقه ، فهو لا يؤول كالخلف مؤكدا أن الحق تبارك وتعالى ليس كمثله شيء .

قال في ختام كلامه عما روي من أن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله[٨٣] عز وجل : ولا نقول أصبع كأصابعنا ولا يد كأيدينا ولا قبضة كقبضاتنا ؛ لأن كل شيء منه - عز وجل - لا يشبه شيئا منا[٨٤] .

وقال في حديث إن الله خلق آدم على صورته : إن الله تعالى وله الحمد يجل عن أن يكون له صورة أو مثال ، غير أن الناس ربما ألفوا الشيء وأنسوا به فسكتوا عنده ، وأنكروا مثله . ثم قال بعد أن عرض عدة تأويلات لهذا الحديث : والذي عندي - والله تعالى أعلم - أن الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين ، وإنما وقع الإلف لتلك لمجيئها في القرآن ، ووقعت الوحشة من هذه ، لأنها لم تأت في القرآن ، ونحن نؤمن بالجميع ولا نقول في شيء منه بكيفية ولا حد[٨٥] .

فما أخذه ابن فورك على ابن قتيبة لا يؤخذ عليه ؛ لأنه مذهب في تأويل

---

(٨٢) المصدر السابق .

(٨٣) أخرجه ابن ماجة .

(٨٤) انظر تأويل مختلف الحديث ص١٩٦ .

(٨٥) المصدر السابق ص٢٠٦ .

النص ارتضاه السلف ، وليس مذهبا قبيحا كما قال ابن الجوزي[٨٦] ، فهو يلتقي مع مذهب من يؤولون في الغاية من التأويل وهي نفي المماثلة .

واتهام ابن فورك لابن قتيبة بالجهل والتوغل في تشبيه الله بخلقه تجاوز في النقد ، ما كان ينبغي أن يذهب إليه فليس ابن قتيبة بالجاهل أو القائل بالتشبيه وكتابه الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة خير برهان على ذلك .

ورأى السيوطي في تأويل مختلف الحديث ذو شقين : الشق الأول أن مؤلف هذا الكتاب قصر باعه في بعض ما تحدث عنه فأتى بأشياء غير حسنة ، والشق الثاني أنه ترك معظم المختلف .

والشق الأول حكم غير مفسر كما ذكرت من قبل فلا يعتد به ، لقد كان على السيوطي أن يبين كيف قصر باع ابن قتيبة في بعض ما تحدث عنه ، فأتى بأشياء غير حسنة ، لكنه أطلق الحكم دون دليل عليه ، فيكون منقوضا أو غير علمي .

وأما الشق الثاني فإن ابن قتيبة جمع في كتابه الأحاديث التي أثار حولها خصوم السنة في عصره الشبهات ، وفند هذه الشبهات ، وبين أن ما يقول به هؤلاء الخصوم غير صحيح ، وقد أشار في مقدمة كتابه إلى أنه نظر في كتبه وجمع منها ما كان موضع جدل ، وعلل لهذا بقوله : ليكون الكتاب تاما جامعا للفن الذي قصدوا الطعن به . فلم يكن هم ابن قتيبة إذن جمع كل مختلف الحديث ، وإنما الرد على ما أثاره أعداء أهل السنة من مزاعم وشبهات .

وخلاصة القول أن كتاب تأويل مختلف الحديث عمل علمي رائد في بابه ، فهو الكتاب الثاني في قائمة ما كتب في هذا الموضوع ، وقد جمع كل ألوان المعرفة التي ألم بها ابن قتيبة ، وتميز بمنهجه الفريد في الدفاع عن السنة ، وخدمتها خدمة جليلة لا تقل أهمية عما خدمها به أئمة كتب الصحاح ، ويكفي أنه تناول كثيرا من الشبهات الكلية والجزئية التي أثارها أعداء السنة ، وأبطلها شبه شبهة ، ولم يدعهم حتى أحال نارهم رمادا[٨٧] .

---

(٨٦) انظر مشكل الحديث وبيانه ص٦٧ هامش ٣ .

(٨٧) انظر مبادىء أساسية للتعامل مع السنة للدكتور يوسف القرضاوي - مجلة الوعي الإسلامي العدد : ٣٠٣ ص١٤ .

وما يؤخذ على ابن قتيبة أو يتهم به ليس بصحيح ، وإن كان كل عالم يؤخذ من قوله ويرد عليه ، وما يرد على هذا الإمام في تأويل مختلف الحديث أنه نسب الخوف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر من المشركين حين هاجرا من مكة إلى المدينة(٨٨) .

وهذا غير مسلم فما هاجر الرسول وصاحبه خوفا من أحد ، وإنما هاجر امتثالا لأمر الله ، فقد عاش الرسول في مكة ثلاثة عشر عاما تعرض فيها وصحابته لشتى ألوان العنت والأذى ، فلماذا لم يهاجر قبل ذلك ، ومكث في مكة يدعو إلى الله ويواجه وصحابته طغيان المشركين بالصبر والمصابرة حتى أذن الله بالهجرة ، فهاجر الجميع استجابة لأمر الله لا خوفا من المشركين ، فتعليل ابن قتيبة لهجرة الرسول وصاحبه مردود عليه .

كذلك ما يرد على ابن قتيبة ما جاء في التعليق على الآية الكريمة «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقي الشيطان في أمنيته»(٨٩) قال : يريد إذا تلا ألقي الشيطان في تلاوته - يعزيه عما ألقاه الشيطان على لسانه حين قرأ في الصلاة : تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن ترتجى(٩٠) .

وقصة الغرانيق موضوعة ، وهي لون من الاسرائيليات ، وذكرها دون التعليق عليها ، وبيان أنها غير صحيحة أمر يرد على ابن قتيبة ، فدفع مثل هذه القصة حماية للسنة كحمايتها من التعارض والاختلاف .

٦ - مدى الحاجة في العصر الحاضر إلى مثل هذه الدراسة حول السنة :

إذا كانت مؤلفات مختلف الحديث على تعدد عناوينها ومناهجها وتفاوت ما اشتملت عليه من الآثار تتغيا هدفا واحدا وهو تصحيح المفاهيم الفاسدة ، وعدم الاختلاف فيها - فإن حياتنا الفكرية المعاصرة تعاني من بعض ما كانت تعاني منه

---

(٨٨) انظر تأويل مختلف الحديث ص١٥٤ .

(٨٩) الآية : ٥٢ من سورة الحج .

(٩٠) انظر تأويل مختلف الحديث ص١٦٩ .

حياة الأقدمين حول السنة ، بل برز في عصرنا أعداء جدد لها من خارج درياننا كالمبشرين والمستشرقين[٩١] .

لقد أثار أعداء السنة في العصر الحاضر ما أثاره أعداؤها في الماضي ، وقد تصدى لهم بعض العلماء وردوا عليهم ما حاولوا به التشكيك في صحة السنة ، أو عدم الاعتماد عليها في التشريع ، ولكن القضية التي تحتاج إلى مزيد من التحميص والدراسة تتعلق بخطر آخر يواجه السنة في العصر الحاضر ، وهو تطفل غير المختصين وأهل العلم بالسنة ورجالها ومجاميعها وعلومها للحكم على الأحاديث الصحيحة ، أو قبول بعض الأحاديث الواهية والموضوعة ، وعدم فقه السنة فقها سليما لا يعرف الافراط أو التفريط .

إن من أهم مشكلات الأمة في حاضرها ذلك الاضطراب في فهم النص النبوي ، وتعصب كل فريق لما يراه من تأويل ، واعتبار ما عداه باطلا ، وهذا يقتضي من أهل الذكر وعلماء السنة ومؤسساتها موقفا علميا جادا يحاول أن يستقرىء النصوص التي هي موضع خلاف ، ويحرر مدلولها تحريرا إن لم يكن قاضيا على كل خلاف فإنه على الأقل يخفف من حدته ، ولا يجعل له ذلك الأثر الواضح في تباين أنماط السلوك والتفكير في حياتنا وكأننا شيع وطوائف متخاصمة أو متناكرة ، ولسنا أمة واحدة .

صحيح أن هناك بعض الدراسات[٩٢] حول هذا التباين وتأثيراته النفسية والاجتماعية والسلوكية في واقعنا ، ولكن هذه الدراسات لا تلقى من البعض إلا النفور والهجوم عليها ، مما يؤكد أن الأمر جد خطير ويحتاج إلى أكثر من لقاء علمي على مستوى العالم الإسلامي ، حماية لوحدة هذا العالم وقوته ، ووضع حد لما يتحدث عنه أعداء الإسلام من المستشرقين وأضرابهم من أن هذا الدين يتعدد بتعدد الدول التي تؤمن به وليس دين وحدة وقوة .

وبعد فلعلي بهذه الدراسة الموجزة قد ألقيت الضوء على علم من أعلام الفكر

---

(٨١) انظر مجلة الوعي الإسلامي ، المرجع السابق ص١٥ .

(٩٢) من هذه الدراسات كتاب «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» للشيخ محمد الغزالي .

في الإسلام ، وإمام من أئمة السنة وحماتها ، وكشفت عن بعض ما بذله السلف من جهد في خدمة الإسلام والذود عنه ، وأطمع أن يكون لنا في هذا السلف القدوة الحسنة ، حتى نكون امتدادا طيبا له ، ونظل بحق خير خلف لخير سلف .

المصادر والمراجع

١ - ابن قتيبة للدكتور عبد الحميد سند الجندي ، سلسلة أعلام العرب العدد ٢٢ القاهرة .
٢ - أبو حنيفة للدكتور محمد يوسف موسى ، معهد الدراسات العربية - القاهرة .
٣ - أبو حنيفة للشيخ محمد أبو زهرة دار الفكر العربي - القاهرة .
٤ - اختلاف الحديث للشافعي مطبوع على هامش الجزء السابع من الأم كتاب الشعب القاهرة .
٥ - أعلام الموقعين لابن القيم مراجعة طه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية .
٦ - تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ونسخة أخرى من تصحيح محمد زهري النجار ط دار الجيل ، بيروت .
٧ - تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه للسيوطي تعليق البسيوني مصطفى الكومي دار الشروق بجدة .
٨ - تاريخ الدولة العباسية للدكتور جمال الدين الشيال ط القاهرة .
٩ - تدريب الراوي للسيوطي تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف .
١٠ - تفسير سورة الاخلاص لابن تيمية ط القاهرة .
١١ - تهذيب الآثار للطبري تحقيق الاستاذ محمود محمد شاكر ط جامعة الامام محمد بن سعود .
١٢ - الحديث والمحدثون للشيخ محمد محمد أبو زهو ط القاهرة .
١٣ - ديوان الهزليين ط دار الكتب المصرية .
١٤ - شرح معاني الآثار للطحاوي ط بيروت .
١٥ - الرسالة للشافعي تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ط القاهرة .
١٦ - ضحى الإسلام للدكتور أحمد أمين ط دار النهضة القاهرة .

١٧ - عقائد السلف تحقيق الدكتور علي النشار والدكتور عمار الطالبي ط منشأة المعارف الاسكندرية .
١٨ - علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحي الصالح ط دار العلم للملايين بيروت .
١٩ - غريب الحـديث لابن قتيبة تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري ط إحياء التراث بالعراق .
٢٠ - الفرق بين الفرق للبغدادي تحقيق الشيخ محي الدين عبد الحميد ط القاهرة .
٢١ - السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث للشيخ محمد الغزالي ط دار الشروق بالقاهرة .
٢٢ - الفهـرست لابن النديم تحقيق الدكتورة ناهد عباس ط دار قطري بن الفجاءة الدوحة .
٢٣ - مالك للشيخ أمين الخولي ط القاهرة .
٢٤ - مجلة الوعي الإسلامي العدد : ٢٩١ ، ٣٠٣ .
٢٥ - المحاضرات المغربيات للشيخ الفاضل ابن عاشور ط تونس .
٢٦ - مشكل الآثار للطحاوي ط الهند .
٢٧ - مشكل الحديث وبيانه لابن فورك تحقيق موسى محمد علي ط القاهرة .
٢٨ - المقدمة لابن خلدون ط التقدم - القاهرة .
٢٩ - نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي للدكتور على حسن عبد القادر ط القاهرة .
٣٠ - وقبات الأعيان لابن خلكان تحقيق الدكتور أحسان عباس ط بيروت .